سلسلة ترجمان

ريجيس دوبريه - رينو جيرار

# ماذا تبقّى من الغرب؟

ترجمة: مراد دياني







=====================

ماذا تبقى من الغرب؟ ريجيس دوبريه - رينو جيرار

=====================

ترجمة: مراد دياني

## هذه السلسلة

في سياق الرسالة الفكرية التي يضطلع بها "المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات"، وفي إطار نشاطه العلمي والبحثي، تُعنى "سلسلة ترجمان" بتعريف قادة الرأي والنخب التربوية والسياسية والاقتصادية العربية إلى الإنتاج الفكري الجديد والمهم خارج العالم العربي، من طريق الترجمة الأمينة الموثوقة المأذونة، للأعمال والمؤلفات الأجنبية الجديدة أو ذات القيمة المتجددة في مجالات الدراسات الإنسانية والاجتماعية عامة، وفي العلوم الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والسياسية والثقافية بصورة خاصة.

وتستأنس "سلسلة ترجمان" وتسترشد بآراء نخبة من المفكرين والأكاديميين من مختلف البلدان العربية، لاقتراح الأعمال الجديرة بالترجمة، ومناقشة الإشكالات التي يواجهها الدارسون والباحثون والطلبة الجامعيون العرب كالافتقار إلى النتاج العلمي والثقافي للمؤلفين والمفكرين الأجانب، وشيوع الترجمات المشوَّهة أو المتدنية المستوى.

وتسعى هذه السلسلة، من خلال الترجمة عن مختلف اللغات الأجنبية، إلى المساهمة في تعزيز برامج "المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات" الرامية إلى إذكاء روح البحث والاستقصاء والنقد، وتطوير الأدوات والمفاهيم وآليات التراكم المعرفي، والتأثير في الحيز العام، لتواصل أداء رسالتها في خدمة النهوض الفكري، والتعليم الجامعي والأكاديمي، والثقافة العربية بصورة عامة.

**الفهرسة في أثناء النشر إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات**
============================================
دوبريه، ريجيس
ماذا تبقى من الغرب؟ / ريجيس دوبريه، رينو جيرار؛ ترجمة مراد دياني.
(سلسلة ترجمان)
يشتمل على إرجاعات ببليوغرافية.
ISBN 978 - 614 - 445 - 564 - 7
1. الحضارة الغربية. 2. النظم السياسية - الغرب. 3. الشرق والغرب. 4. الغرب - العلاقات الخارجية. 5. الإسلام والغرب. أ. جيرار، رينو (مؤلف مشارك). ب. دياني، مراد (مترجم). ج. العنوان. د. السلسلة.

**909.09821**

============================================
هذه ترجمة مأذون بها حصريًا من الناشر لكتاب
**Que reste - t - il de l’Occident?**
*By Régis Debray - Renaud Girard*

============================================
الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن اتجاهات يتبناها
**المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات**
============================================
**الناشر**
**المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات**
شارع الطرفة - منطقة 70 وادي البنات - ص. ب: 10277 - الظعاين، **قطر**
هاتف: 00974 40356888
جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 **لبنان**
هاتف: 8 991837 1 00961 فاكس: 1991839 00961
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

الطبعة الأولى: بيروت، تشرين الأول / أكتوبر 2023

# المحتويات

# مقدمة المترجم

هل نجمُ الغرب بصدد الغروب في وهج الشفق؟ كثيرًا ما طُرح هذا السؤال في الماضي، وما زال يجد له صدى في الحاضر. وإذا كان المنظور اللغوي لا ينفصل عن هذا السؤال، بوصف كلمة الغرب (Occident) مشتقة من المصطلح اللاتيني "Occidere" الذي يعني "السقوط" أو "التهاوي"، فإن عاملين أساسيين ما فتئا يعيدان طرح سؤال "تهاوي" الغرب في أتون أزمة حقيقية وأفول عهد تفوُّقه وهيمنته، هما: تناقضات الغرب وأزماته الداخلية من جهة، وبروز قوى "ناشئة" على الساحة العالمية من جهة أخرى، فضلًا عن توهم "التهديد الإسلامي" المزعوم.

لكن، قبل طرح هذا السؤال: "ماذا تبقّى من الغرب؟"، ينبغي توضيح ما الذي نعنيه بالضبط عندما نتحدث عن الغرب؛ متى وُلد وأين، وعلى أي أسُس؟ فهل نشأ الغرب في أثينا مع بروز أفكار المواطنة والحرية في ظل القانون والعلم والمدرسة؟ أم في روما مع ابتداع القانون الخاص الروماني والملامح الأولى للفردانية؟ أم في القدس مع المجيء الأول للأخلاقية والأُخروية الإنجيليتين؟ أم في العصور الوسطى مع الإصلاح البابوي؟ أم تزامنت ولادته مع ولادة الجامعات، وتوسُّع المدن والثورة الصناعية؟ أم إنه تَشكَّل مع حلول الديمقراطيات الليبرالية وابتداع المؤسسات الديمقراطية والليبرالية الحديثة؟ من بين هذه العناصر جميعًا، يرى العديد من الكتّاب في مسيحية العصور الوسطى الشكل النهائي للغرب، بينما يحيل آخرون على "النهضة الأولى" (Quattrocento) أو على عصر الأنوار، فيما يُؤْثر غيرهم تحديد حدود الغرب ضمن منطقة جغرافية أوروبية - أطلسية، بوصفها "العالم الأول" المغاير لـ "العالم الثاني" (الكتلة الشيوعية سابقًا) والعالم الثالث، شاملًا بذلك العالم المسيحي من دون المنطقة الأرثوذكسية. وهذا هو شأن ريجيس دوبريه الذي يعمد في هذا الكتاب إلى تحديد نطاق الغرب داخل إطار منظمة سياسية - عسكرية هجومية وتوسعية، بعد أن كانت في الأصل دفاعية، وهي حلف شمال الأطلسي (الناتو)؛ أي تلك "الأداة للهيمنة الأميركية"، كما كان يصفه الرئيس الفرنسي السابق شارل ديغول. وفي هذا الصدد، تجدر الإشارة إلى أن كلمة "الغرب" لا تظهر في معاهدة حلف شمال الأطلسي عام 1949، في حين يجري الحديث عن "التضامن الأطلسي". كما لم يُصبح الحديث عن "التضامن الغربي" شائعًا عوضًا عن "التضامن الأطلسي" سوى في أعقاب انهيار الاتحاد السوفياتي. وأخيرًا، يأتي تعريف الأطياف المناهضة للهيمنة الغربية، والتي ترى الغرب في المقام الأول من خلال إمبرياليته ورغبته الحثيثة في "تحديث" كوكب الأرض وفقًا للمعنى الذي يمنحه للحداثة، بمعنى خليطٍ من السوق

الحرة، والفردانية المفرطة والمنقطعة عن التقليد أو الانتماء، وأقصى درجات الاستهلاك، والحكامة الجيدة باعتبارها فن الحكم من دون سياسة مثل حكم الشركات والمؤسسات؛ ومن ثم، يجري استحضار نظرية المؤامرة المخاتِلة وراء "استغراب" و / أو "تغريب" الحكام والنخب والأنظمة الأخلاقية واستلابها.

هذه الأسئلة الكبرى كلها مضمَّنة بين دفتي هذا الكتاب الصغير، يسبقها عنوان استفهامي ومفتوح على أكثر من جواب: "ماذا تبقّى من الغرب؟". ويجمع هذا الكتاب من خلال تبادل رسائلي متنور بين مثقفَين فرنسيَّين ذَوَيْ خلفيات متباينة؛ فالأول هو الفيلسوف ريجيس دوبريه، عضو الأكاديمية الأدبية المرموقة غونكور، وهو ذو تاريخ نضالي رفيع، والآخر، رينو جيرار، وهو كاتب وصحافي دولي متخصص في تغطية الحروب وقضايا الشرق الأوسط، وأستاذ في العلوم السياسية.

يعرض الكتاب رؤى متباعدة، حتى إنها متباينة، للمشاكل الرئيسية التي تخص الغرب في العصر الحالي، تحيل على الكتاب الشهير لأوزوالد شبنغلر في عام 1922، **انحدار الغرب**. وعلى الرغم من التباين الشديد لخلفية الكاتبين وحساسية القضايا التي يجري تناولها، يظل هذا الكتاب من بدايته إلى نهايته متبصرًا، ويظل الحديث مهذَّبًا ("عزيزي رينو"، "عزيزي ريجيس") بين مثقفَين أحدهما ما عاد ثوريًّا بعد أن كان كذلك لعقود، والآخر لم يكن ثوريًّا البتة، ضمن إطار من الاحترام المتبادل للاختلافات وتبادل الحجج بلباقة.

ولأن ريجيس دوبريه أول من يطرق إشكالية "نهاية الغرب" هذه، فإنه يسلك منهجًا أكاديميًّا جدليًّا لعرض ما يسميه "البيانات السريرية" للغرب، "بمنظور الطبيب المعالج الخبير"، وفق قوله، مشددًا في المقام الأول على التماسك المنقطع النظير للغرب تحت كنف واشنطن، معتبرًا بذلك أن الريادة الأميركية مقبولة من جميع الأطراف الغربية، وأن الغرب ليس في نهاية المطاف سوى "اسم مستعار" لحلف شمال الأطلسي (الناتو). بيد أن هذا لا يمنعه من أن يرى في هذا التماسك عنصرَ قوة أساسيًّا في عالم غير مستقر ومتعدد الأقطاب، معتبرًا الغرب المجموعة الوحيدة الأحادية القطب والمتسقة، وهو ما لا يمكن أن يتحقق في رأيه أبدًا في أي منطقة أخرى من العالم؛ مثلًا في آسيا (بين الصين والهند)، أو في أميركا الجنوبية (بين البرازيل والأرجنتين)، أو في أفريقيا (بين نيجيريا وجنوب أفريقيا)، أو في جميع المجالات الجيوسياسية الكبرى الموسومة بالانقسامات الداخلية (جامعة الدول العربية، ورابطة دول جنوب شرق آسيا، وسواهما)، ليخلص إلى أن "حلف شمال الأطلسي وحده يمكنه التحدث بصوت واحد، مع خط قيادةٍ غير متنازع عليه وتوافقٍ عقدي". المشكلة في هذا الطرح، كما يُقِر بذلك دوبريه نفسه، هي أن هذين التماسك والصوت الواحد يوحيان للغرب بـ "احتكار ما هو كوني"، ومن ثم لا يجد حرجًا

في تقديم نفسه مركزًا للعالم وتقديم مصالحه كما لو كانت مصالح الإنسانية بأسرها. إنها المركزية الإثنية الغربية في أبشع صورها [(1)].

في جوابه عن هذه الصورة الرمادية للغرب، تتمثل الحجة الرئيسية التي يعرضها رينو جيرار في أن الغرب يجمع بلدانًا قائمة على سيادة القانون، في حين أن باقي العالم يعيش في ظل دكتاتوريات تتخذ صورًا وأشكالًا عدة. كما يحرص رينو جيرار على تأكيد البُعدِ المسيحي بوصفه إحدى أهم السمات المميِّزة للغرب، ساعيًا من وراء ذلك إلى تأكيد عدمِ تنافر الغرب مع روسيا وأوراسيا، خلافًا لمناطق أخرى من العالم لا تشترك معه في المرجعية المسيحية. ويحاجج جيرار، في السياق ذاته، بثلاثينيات القرن العشرين حين أدار الغربيون ظهرهم لجوزف ستالين الذي لم يكن يُكنّ لهم العداء ويرجو خرابهم، على خلاف ألمانيا النازية، وهو ما دفع الغرب ثمنه لاحقًا. بيد أن الموازاة التاريخية التي يُجريها جيرار مع سورية بشار الأسد متهافتةٌ للغاية، إذ يؤكد أن بشار الأسد، على غرار جوزف ستالين، وإن كان مكروهًا في بلده، فهو ليس العدو الرئيس الذي يحلم بدمار الغرب، بل إن هذا العدو هو "الفاشية [الجهادية] الخضراء"، مثلما كانت النازية في الماضي؛ ومن ثم فإن عجز الغرب عن تحديد هذا العدو الجهادي الفاشي سيدفع ثمنه لاحقًا مثلما دفع ثمن عدم تعرّفه مبكّرًا إلى العدو النازي.

تأسُّف رينو جيرار على السياسة الخارجية الغربية تجاه سورية (وتجاه الثورات العربية عمومًا) هو ذاته ما يسميه الكاتب "الطيش الغربي الكبير" تجاه روسيا إبان الأزمة الأوكرانية في عام 2014، إذ عاد بقوة المكبوت التاريخي القائم على أساس حضاري: أوراسيا. وبتأكيده أن فلاديمير بوتين ليس عدوًّا للغرب وإنما غريمه فحسب في لعبة تأثيرات النفوذ في أوكرانيا، فهو يُرجِع هذا الفشل الغربي إلى نفوذ المحافظين الجدد ومؤسسات الفكر والرأي والخبرة الأميركية، وعدم قدرتها على تمييز الفوارق الطفيفة لدى الأجنحة غير الغربية ذات طابع الاستبداد الشرقي لكن غير المعادية جوهريًّا للغرب، على خلاف "الأيديولوجيا الهدامة" لـ "الفاشية الخضراء" التي لم يفهم الغربيون من طبيعتها، بنظر جيرار، سوى النزر اليسير، بل إنهم قد تركوا من يغذيها، سواء في أراضي البلاد العربية الإسلامية، أو في أراضي الغرب لدى الجاليات المسلمة المهاجرة.

وقد تمثَّل جواب ريجيس دوبريه اللاذع في التذكير ببيان صدر في عام 1935 بعنوان "بيانٌ للدفاع عن الغرب"، لدعم العدوان الإيطالي على إثيوبيا، التي "هي مزيج من القبائل الجاهلة" بحسب وصف البيان، ولتأكيد شرعية التوسع الغربي الاستعماري واجتياحه الدول "المتخلفة" باسم تفوقه الأنطولوجي. وقد كان دوبريه محقًّا تمامًا في التأكيد أنه "يوجد غربٌ آخر" تمثَّل في بيان مضاد للأكاديميين صدر في الفترة ذاتها مفندًا الغطرسة العمياء للبيان الأول. وعلى

المنوال نفسه، يدعو دوبريه ضمنيًّا المثقفين والأكاديميين الغربيين إلى تلافي هيمنة الأحادية والمركزية الإثنية الغربية، القائمتين على الغطرسة والإمبريالية، والسعي للكشف من جديد عن الوجه الآخر المُشرِق للغرب، بعد أن طال كسوفه خلال الفترة الذهبية في الآونة الأخيرة لهيمنة المحافظين الجدد.

حوارٌ مثير هو هذا الكتاب، تتمخض عنه صورة "رمادية" للغرب، لا هي بيضاء ناصعة البياض ولا هي قاتمة السواد موغلة في الإنكار، باعتباره الإله "يانوس" ذا الوجهين [(2)]. ويتوافق الكاتبان، على الرغم من اختلافاتهما العميقة، على أن الغرب لا يزال قائمًا وثابتًا، وإن كان تفوُّقه قد بدأ يترنح قليلًا، مع خلاف في توصيف هذه الاستمرارية الراجعة لقوته العسكرية والتكنولوجية، وفقًا لريجيس دوبريه، ولكون وجوده السياسي لا ينفصل عن جذوره الثقافية الراسخة والوطيدة، وفقًا لرينو جيرار.

(1) بيد أنه يجدر التنويه مع ذلك بالرؤية النقدية لريجيس دوبريه إزاء العديد من ملامح وجه الإله يانوس / جانوس (Janus) (ذي الوجهين) الغربي المقيتة التي تعجز المركزية الإثنية الغربية عادة عن تبيُّنها، بدءًا من غطرسته العالمية المفرطة وعقدة التفوق المسبّبة لعمى البصيرة، مرورًا باحتباسه في الزمن القصير وفقدانه للمقدس، ومن ثم إنكاره للتضحية، على خلاف "بقية العالم" حيث روح المقدس والتضحية لا تزالان عاليتين، وفي مقدمتها البلاد العربية الإسلامية، ووصولًا إلى سياسته الخارجية الكارثية التي أفضت إلى "تدمير الدول الوطنية أو استنزافها تحت وطأة الضربات الساحقة للتدخل الخارجي، ما كان له تأثير عكسي تَمثَّل في تناثر مصادر اختلال النظام والبلبلة"، وفق تعبير دوبريه.

(2) يقارن:

.Maurice Duverger, *Janus: Les deux faces de l’Occident* (Paris: Editions Fayard, 1972)

# رسالة من ريجيس دوبريه إلى رينو جيرار

14 كانون الثاني / يناير 2014

عزيزي رينو جيرار،

وأنا أعيد قراءة تحليل "الغرب" الذي كنت أقوم به منذ عهد قريب في عام 2012، يتبادر إلى ذهني لقاؤنا في مطار رواسي [ضاحية باريس]. كنتَ حينذاك مغادرًا إلى بلاد الشام، وبيدك جريدة **لوفيغارو** (*Le Figaro*)، وكنت أنا مغادرًا إلى الصين، متأبّطًا جريدة **لوموند ديبلوماتيك** (*Le Monde diplomatique*). تلاقٍ عرَضي لكن في محله. ولمن هو من أتباع السوريالية، يمكن للمظلة ولآلة الخياطة أن تلتقيا، وإن لم يرُق ذلك لِلُوترِيامون، في مكان آخر غير طاولة التشريح [(3)]. والدليل على ذلك أننا ذهبنا لتجاذب أطراف الحديث على طاولة مقهى بانتظار طائرتَينا؛ فلا شيء مستحيل بين قدماء شارع أولم [(4)]. وأنا أتذكر أنك أتيت على ذكر قضية مسيحيي الشرق، وهي مسألة مؤلمة بالنسبة إليّ ومنذ أمد بعيد. في حين أتيت أنا على ذكر العودة المقلقة في فرنسا لمفهوم الغرب، وهي مسألة لا تدعك غير مبالٍ بها. وفي ختام الحديث، وجّهت إليّ هذا السؤال: "ولكن في الأساس، ما الغرب على وجه التحديد؟". كان حينذاك مُكبّر الصوت ينادي على الركاب، كلًّا بحسب وجهته، وكنا في عجلة من أمرنا. وبقي سؤالك الجيّد معلقًا في الهواء. ولكن صادف أنني كنت ذاهبًا إلى بكين لمحاولة الإجابة عن السؤال ذاته، على اعتبار أن أصدقائي الصينيين كانوا يطرحونه أيضًا؛ ومن ثم هذه التوضيحات التي أعرضها تاليًا. فهل نضِج هذا السؤال جيدًا؟ وهل قمت أنا بالتشخيص الصحيح؟

إذا كانت الكوميديا السياسية تجعلني أشعر بالضجر، فإني أحتفظ بفضول لامتناهٍ تجاه مآسي العالم. وعلى اعتبار أنني ما عدتُ أجوب العالم كثيرًا وأنك لا تتوقف عن التجوال، فلديك معلومات أكثر مني، ولديك إمكانية محظورة عليّ للوصول إلى سادة الإمبراطورية (كوني شخصًا غير مرغوب فيه (persona non grata) في الولايات المتحدة). ولدى مراسل الحرب على وجه التأكيد، وهو الشاهد الجيد على "عملياتنا الخارجية"، تصحيحاتٌ يقدمها لتشخيصي السريري السابق. وعلى اعتبار أن الشؤون التي يُقال عنها خطأً أنها خارجية لا تعبأ بالأيديولوجيات أو التسميات الواسمة، فأود أن أعرف ما هي هذه التصحيحات. وهذا سيساعدني على اكتساب القدرة العليا التي يُحسد عليها المرء، والتي لا غنى عنها للنظر إلى كلا الجانبين من الأشياء.

مع خالص التقدير

**ريجيس دوبريه**

(3) يُحيل ريجيس دوبريه هنا على الجملة الشهيرة للشاعر الفرنسي لوترِيامون (Comte de Lautréamont): "جميل... مثل تلاقٍ عرَضي على طاولة تشريح بين آلة خياطة ومِظلة!"، وهي الجملة "المبهمة" التي كان يعشقها السورياليّون ويَعُدونها المثال النموذجي لـ "الجمال المتشنج" و"جماليات المفاجأة"، وفي مقدمتهم أندريه بروتون الذي كان يعتبر أن المصادفة ثغرة تسمح للسوريالية بأن "تقتحم" الواقع. (المترجم)

(4) يحيل التعبير "قدماء شارع أولم" (anciens de la rue d'Ulm) إلى خريجي "المدرسة العليا للأساتذة"، إحدى مؤسسات التعليم العالي المرموقة في فرنسا، وهي تقع في شارع أولم بباريس. (المترجم)

# الغرب: البيانات السريرية [(5)] ...... ريجيس دوبريه

تتفحص أميركا نفسها، وتهيم أوروبا على وجهها، وتجد الصين نفسها من جديد. وها هي تُستأنف ألحان الخريف الشجينة، جهة الشمس الغاربة، أي جهتنا. وفي الوقت الذي تبرز فيه في الكتب المدرسية من جديد فكرةُ الغرب النبيلة وغير المتقادمة أبدًا لوسم الثلاثي المعتاد "الولايات المتحدة الأميركية / بريطانيا العظمى / فرنسا"، حيث تميل نزعة هذا العصر في الجوار، يسارًا أو يمينًا، إلى "الاستغراب" [(6)]، وحيث تدعو كل شخصية أخلاقية كبرى إلى هبّة إحياءٍ للقوى والقيم والمسؤوليات "الغربية"، فإن عنوان كتاب شبنغلر السيئ الصيت، **انحدار الغرب** (الصادر في عام 1922) [(7)]، بدأ يتصدر أغلفة المجلات. وحين بدأنا نسأم من رامبو، وجدنا أمامنا من جديد هاملت. ولأسباب هذه الكآبة الغربية دوافع ذُكرت مئة مرة: الانغمار الديموغرافي (ما هو وزننا فوق كوكب تضاعفت ساكنته على مدى نصف قرن من 3 إلى 6 مليارات ساكن؟)، والتراجع عن التصنيع، والمديونية، وعجز الميزانية العامة، وتلوُّث البيئة، وتهاوي القدرة التنافسية، وامتياز صرف اليوان (على اعتبار أن الصين تبيع، كما يقال، بنصف السعر)، وفقدان الثقة بنموذجنا للنمو، وهكذا دواليك. وهذه قائمة معروفة جيدًا لدينا.

ويرجع هذا الوهن العصبي (neurasthénie) العابر إلى حد بعيد إلى السلطة التعسفية للمحاسب، وهي مسألة مميَّزة لمجتمع مصنِّع ومتاجر، وغافل عن ركائزه الذاتية الثقافية والتاريخية. فمن تحفُّظ علماء الأجناس، إلى التخصص المفرط للمؤرخين، إلى تواري الجغرافيين، إلى النزعة الأكاديمية المفرطة للأنثروبولوجيا الدينية: أصبح الدكتور في الاقتصاد هو من يعطي الإيقاع ويضبطه، ومن ثم الجهة التي تأتينا منها "الموسيقى الهادئة لرجاء متعالٍ". ومن شأن ميزان مدفوعات سليم، باعتباره شرطًا ضروريًّا للقوة والإشعاع، أن يصبح تقريبًا وافيًا بالمراد. كما لو أن ضروب العجز المالي، وحالات الركود، والانحسار، وإفلاس البنوك لم يسبق لها مثيل، وكما لو أن الغرب لم يجربها من قبل. فالوضعية المهيمنة لا تتوقف على سعر الصرف أو على تكلفة العمالة. وإذا كان الناتج المحلي الإجمالي هو ما يحدد التراتبيات الهرمية، فإن الاتحاد الأوروبي يمكن أن يتحدث على قدم المساواة مع الولايات المتحدة والصين. ومن شأن هذه، أي الصين، وهي القوة التجارية الأولى في العالم - وعلى الأرجح، القوة الاقتصادية الأولى في عام 2030 تقريبًا، وهو ما كانت

عليه بالفعل في عام 1830، مع تقديرات بأن تحظى بربع الناتج المحلي الإجمالي العالمي - أن تصل بكياسة ومواربة إلى قمة منصة التتويج.

فلا شيءَ محددٌ سلفًا، وكل العوامل المتناهية الصغر التي تصنع **الفارق بين ثقل أمة ودورها**، بين الغَلَبة والنفوذ، بين ما هو اقتصادي وما هو سياسي، تستعصي على الاقتصاد السياسي ولا تُدرّس في كليات إدارة الأعمال. وتقع هذه العوامل خلف الأرقام أو ما دونها؛ وهي العوامل التي ينبغي أن يأخذها في الاعتبار أولئك الذين يدقون المسمار الأخير في نعش التفوق والاستعلاء، سواء لديكم في الصين بنفاد صبرٍ أو لدينا في أوروبا بحزن وحنين. ومن شأن جردٍ للأوضاع، وإن كان على نحو مبسَّط، أن يسلط الضوء على هذه العوامل غير المرئية، بمجرد أن ننظر إلى الحقائق بمنظور الطبيب المعالج الخبير، بدلًا من منظور مجبِّر العظام أو الحانوتي.

ولنبدأ أولًا بجرد قائمة عوامل النجاح.

**عامل النجاح الأول: تماسك منقطع النظير**

باعتباره ابتداعًا أسطوريًّا إلى حد بعيد - مع العلم أن الأساطير هي شُهب ساطعة وليست من خَطَل القول وهرائه - شهد "الغرب" تجسدات أسطورية عدة خلال الألفية الماضية (من دون الرجوع إلى تقسيم الإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع ولا إلى الكارولنجيين). ولعرض الأمور ببساطة: المسيحية نحو عام 1250، وعصر التنوير الأوروبي نحو عام 1750، ونادي برلين نحو عام 1900 لتقاسم الكوكب الأرضي، و"العالم الحر" نحو عام 1950 للوقوف في وجه ستالين. وعلى اعتبار أن كل جماعة أهلية بشرية تنشأ داخل إطار من التعارض، فقد جرى هذا التبلور دائمًا داخل إطار عداءٍ مع الشرق الدخيل واللعين، الذي جسّده تباعًا الساراسين (Sarrasin)، أو العثماني، والكهنوت الظلامي، والأعراق المنحطة وحتى الاسترقاقية، وأخيرًا الغولاغ (Goulag). إنه صراع من مئات الفصول المختلفة بين الخير والشر، بين الحضارة والهمجية، بين النور والظلام (ثنائيتنا الفطرية التي سرعان ما تتحول إلى المانوية [(8)]، وهو ما تجهله مذاهب الإيمان بتعدد الآلهة). ولم يكن لأي من ضروب الوحي التاريخية هذه درجةُ التنظيم والاتساق التي نعرفها اليوم. فالبلدان التي تغرب فيها الشمس لها بطبيعتها ملامح جمالية لكنها سديمية. والمنطقة الأوروبية - الأطلسية، أي "النطاق المسيحي" (من دون العالم الأرثوذكسي، وهو جزء ليس غير ذي بال)، ليس لها شيء من جغرافيا روحانية باطنية. وللحديث بوضوح وصراحة، إنها جغرافيا حلف شمال الأطلسي، وليس الغرب إلا بمنزلة اسم مستعار لها. وهذا النظام السياسي - العسكري آخذ في التوسع. وتقع قاعدته الأمامية في غرب (ouest) الغرب (Ouest)[(9)]، أي في الولايات المتحدة، لكنه صار، من الآن فصاعدًا، يشمل أوروبا الشرقية سابقًا، وكذلك حدود دول البلطيق (بانتظار جورجيا). ولهذا "التصميم الأمني" ركائز

متينة ودعامات في منطقة آسيا والمحيط الهادئ، مع اليابان وتايوان وكوريا الجنوبية، فضلًا عن أستراليا ونيوزيلندا (المجتمعة سابقًا ضمن معاهدة أنزوس (ANZUS)) وإن تدخلت الولايات المتحدة هناك لحسابها الخاص، أي خارج إطار حلف شمال الأطلسي، فهذا يكون أيضًا باسم الغرب، وباسم أمنه وقيمه.

من بين دول الاتحاد الأوروبي السبع والعشرين أو الثماني والعشرين [(10)]، إحدى وعشرون دولة مدمجة ضمن حلف شمال الأطلسي وسعيدة جدًّا بذلك. وبوصفه ناديًا للأغنياء أو أسرة روحية، لم يعد "العالم الغربي" مكتفيًا، كما كان من قبل، بتمجيد نخبةٍ كهنوتية أو فكرية أو عسكرية. إنه شعور بالانتماء، أو حتى بالولاء، متجذر في الذهنيات. وعلى الرغم من أن هذا الجرس لا يلحظه أحد ممن يعيشون داخله (مثلما لا تكتشف الأسماك الصيغة الكيميائية للماء، $H_2O$)، فإن التجانس الداخلي للعالم الغربي لا يجد له نظيرًا في أجزاء أخرى من العالم.

ولا يُعرِّف أيٌّ آسيوي نفسه على هذا النحو. ولا تبدو آسيا مجموعةً إلا إذا نظرنا إليها من بعيد، ولا تعاش باعتبارها مصيرًا مشتركًا. ومن الواضح أن الهند لا يمكنها أن تعترف بالصين باعتبارها زعيمة أو متحدثة باسمها، فضلًا عن اليابان، ومن دون الحديث عن فيتنام. وترفض جنوب شرق آسيا (آسيان (ASEAN))، وهي الواقعة بين كمّاشة العملاقين، وصاية الهند والصين في آن واحد.

ربما تنتمي الثنائية القطبية بين الشرق والغرب إلى الماضي، لكن الغرب هو، من جهته، أحادي القطب؛ فلا يجادل أيٌّ من أعضائه الريادة الأميركية. وقد تركت ضلالات جورج بوش الابن القادة الأوروبيين ثابتي الجأش أو مأسورين؛ فلم يُسمع صوت احتجاجي واحد ضد غزو العراق، باستثناء صوت فرنسا، لمدة قصيرة، مع قلق شديد لنظرائها، باستثناء النظير الألماني. ومنذ أن انصاعت فرنسا الديغولية ورجعت إلى الصف [(11)]، إلى حد انسياقها في حروب خاسرة سلفًا وليس لها فيها ناقة ولا جمل (ومن دون أي شكوى من عدم امتلاكها أي حق للرقابة على قيادة هذه الحروب)، أصبح الغرب هو الكتلة المتعددة الجنسيات الوحيدة القادرة على القيام بعمليات عسكرية سريعة ومنسقة (يوغسلافيا وليبيا). فمنظمة الدول الأميركية (OEA) منقسمة، والمركوسور (Mercosur) تتمتم [تتلعثم]، ومنظمة الألبا (ALBA) تخطب تفاصحًا، والمغرب العربي مجزّأ من الداخل، والاتحاد الأفريقي يهيم في صراع تدافعٍ ومنابذة، وجامعة الدول العربية ومنظمة شنغهاي للتعاون (OCS) وآسيان هي منتديات وليست مواضع لصنع القرار مجهَّزة لذلك كما يجب، وتحولت "مجموعة العشرين" إلى حدث إعلامي (Media event)، في حين ينتمي "قطب الدفاع الأوروبي" [(12)]، باعتباره تجمّعًا تحضيريًّا أو ركيزة، إلى المنظمات الزائفة، من مثل "اتحاد أوروبا الغربية" (UEO) سابقًا، أو إلى التمنيات الورعة

التي لا طائل منها. وأيُّ قوةٍ إقليمية أخرى يمكنها تطبيق قرار للأمم المتحدة، حتى إن اقتضى الأمر تحريف معناه أو عكسه؟ وحده حلف شمال الأطلسي يمكنه التحدث بصوت واحد، مع خط قيادة غير متنازع عليه وتوافقٍ عقائدي.

من الجدير بالذكر أن أيًّا من أعضاء هذا التحالف المنصوص عليه بوصفه دفاعيًّا [أي حلف شمال الأطلسي] لم يستدع مسألة الضمير في عام 1989. يا هلا! قد فزنا! فلنشرب نخبًا ثم إلى اللقاء! إلامَ يشير هذا؟ لا يشير فحسب إلى أن أوروبا متعبة ومُذعنة لخضوعها وتبعيتها، وحالمة في ظل المثالية الفدرالية بالاتحاد السويسري الواسع (سويسرا من دون الجبال والخدمة العسكرية الإلزامية)، وأنها مُوكِلة رعاية أمنها إلى ما وراء الأطلسي [أي إلى الولايات المتحدة]، ولكن بولاء عميق ومتفان. ومن دون أي حكم قيمة، يُعَد هذا التنافر الاستراتيجي مؤشرًا على التماسك. فالجماعةُ الأهلية الملتفة حول القيم والمخاوف قويةٌ بما فيه الكفاية لمحو تضارب المصالح بين ضفتي المحيط الأطلسي، ولا سيما الجغرافية منها.

والمجال الذي يُعَد علويًّا للمُثل العليا والقيم التي تشكِّل ميزان قوى أكثر مما يعتقده المثاليون، يُظهر قدرةَ التكامل نفسها. وتحدد "حقوق الإنسان والمواطن" (التي جرى تنقيحها واختزالها من لدُن الفردانية المفرطة إلى "حقوق الإنسان" (human rights) التي اختفى منها "المواطن") مفتاح المعايير المدنية المشروعة. وإن كانت هذه الحقوق أبعد من أن تكون محترمةً في كل مكان، فإن الجريمة الدكتاتورية النكراء تصبح على الفور موضوع رقابةٍ عامة، بما في ذلك في البلدان المعنية. ولم تصمد "القيم الآسيوية" - أولوية الجماعة على الفرد، والانضباط، والتسلسل الهرمي، والوئام، والتقشف وحسن التدبير - التي كان يلوح بها المعاندون (ماليزيا وسنغافورة)، أمام صدمة أزمة اقتصادية. ولأنها منغرسة في وحيٍ وليس في حكمةٍ (فالرسول محمد كان يعتمد على الإلزام أكثر من كونفوشيوس)، لا يبدو أن القيم الإسلامية - باعتبارها حركةَ عصيان مدني أكثر صرامة - موعودة بمصير أفضل في أعقاب اختبار السلطة وعلى المدى الطويل. ويجري الطعن في فرض الشريعة من داخل العالم الإسلامي نفسه (على يد الشبيبة المتعلمة وعلى يد نسبة كبيرة من الطبقة الوسطى الحضرية)، في حين أن "الأساس القائم على حقوق الإنسان" في الغرب، لا يُظهر أي خط انكسار. وعلى الرغم من أن اعتناق المستعمِرين لدين القانون - وهم الذين ظلوا طويلًا مناصرين لقنابل النابالم والتعذيب والعمل القسري - يُثير سخرية عدد من المستعمَرين السابقين، فإن هذا الموقف يحظى تقريبًا بالإجماع، وذلك للسبب نفسه الذي يجعل الشابة المسلمة المتحجبة في تونس أو في إيران تلبس الجينز الأزرق تحت حجابها. فالثوب هو أيضًا اعتراف.

**عامل النجاح الثاني: احتكار ما هو كوني**

 تسعى جميع الدول وراء مصالحها الحيوية في الخارج. وهكذا تسهر الصين، وهي التي تفتقر إلى المواد الخام اللازمة لتنميتها (تقريبًا مثلما كانت اليابان قبل الحرب)، على مصادر إمداداتها وخطوط تموينها الممتدة من نصف الكرة الأرضية إلى النصف الآخر، من دون كياسة مفرطة. ولنسمِّ هذه المسألة الأنانيةَ المقدسة؛ فالجميع يعلم ذلك. وحده الغرب لديه مهارة تقديم مصالحه وتمثيلها بوصفها تعبِّر عن مصالح الإنسانية بأسرها (الحرية، والتحرر، والتقدم). ومن الرموز الجغرافية لهذه المصادفة توطين مقر الأمم المتحدة في نيويورك. إنه في قلب القوة العظمى الوحيدة حيث تكمن الهيئة المعتَرف لها بـ "الضمير الكوني"؛ فحاضرة أكبر قوةٍ عسكرية هي حاضنة أسمى قانون. وتمثِّل الدول العشر التي صوتت في مجلس الأمن على القرار 1973 (الذي يقيم منطقة حظر جوي من أجل حماية الشعب الليبي على الأرض) 10 في المئة من سكان العالم؛ مثلها في ذلك مثل الدول العشر الأعضاء في آسيان (بروناي، وكمبوديا، وإندونيسيا، ولاوس، وماليزيا، وميانمار، والفلبين، وسنغافورة، وتايلند، وفيتنام). لكن هذه البلدان الأخيرة لن تعرّف نفسها أبدًا بوصفها "المجتمع الدولي"، إلا إذا كان ذلك على سبيل المزاح. بيد أن هذه الحيلة لعرض الأمور ليست خديعة من "غزّالي الصور المنمَّقة" [(13)](spin doctors)؛ إنها قناعة صادقة، نصف أبوية، ونصف تطورية؛ وهي تغلّف المعنى التقليدي "الكيل بمكيالين" (بما في ذلك، على سبيل المثال، الحق في الانفصال المعترَف به لكوسوفو، الموالية للغرب، ولكن الذي يجري إنكاره لأبخازيا وأوسيتيا الجنوبية المواليتين للشرق) في أعتى صور المثالية. فأرستقراطية الجنس البشري، باعتبارها كونفدرالية للديمقراطيات التي ترى نفسها ضمن رابطة الخير العام ضد عصابة الطغاة والأوغاد، لا يمكن أن تنظر إلى نفسها باعتبارها تحالفًا مقدسًا كما تنظر إليها بقية الكوكب الأرضي. فالأحقاد التي تثيرها هذه الأرستقراطية غير مفهومة بالنسبة إليها، وهذا اللاوعي يصنع ضميرها المرتاح.

 فلا يزعم الآسيويون ولا الأفارقة امتلاكهم مفتاح السعادة والمستقبل. وما عاد المسلمون، في أغلبيتهم العظمى، يحلمون بإعادة تشكيل بقية العالم على صورتهم. ولا يطمح البشتون الذين يقال عنهم طالبان سوى إلى طرد الأجانب خارجًا وإقامة الشريعة في وديانهم. غير أن أحدًا لا يُصدِركل ما يحدث على كوكب الأرض إلا الكتلة الغربية التي تضع قائمة الأشرار (bad guys) وتفرضها (وهي القائمة التي تتغير وفقًا للظروف)، أو تقرر عقوبات ضد هذه الدولة أو تلك التي يجري وصمها بالمارقة. شرطي العالم هو أيضًا القاضي في مرحلة الحكم النهائي، ما دام في وضعٍ يُمكّنه من توظيف مجلس الأمن وجعله وسيلة، أو من الالتفاف عليه. وعلى الرغم من الفيتو الروسي والصيني الذي يؤخر أكثر من كونه يمنع، ومن وكالاتٍ معطّلة وجمعية عامة غير ملزمة،

لا تشكِّل الأمم المتحدة عقبة يتعذر اجتيازها، إلى حد أن أمينها العام السابق بطرس غالي أعلنها مؤخرًا "خانعةً للحلف الأطلسي". وعقب انقراض منشدي "نشيد الأممية" [(14)]، يُعَد الغرب المجموعة الأخيرة من الدول التي من شأنها (مع موافقة الأمم المتحدة التي يجري التماسها مسبقًا أو لاحقًا أو من دونها) استخدام الوسائل العسكرية (manu militari) لإسقاط الأنظمة القائمة في أقاصي العالم، والتي لا يبدو أنها تهدد السلام العالمي؛ أو من شأنها أن تدعم التمردات أو الانشقاقات أو الانفصال عبر العمليات السرية أو المرتزقة.

ومن الواضح أن الأمم الإمبراطورية قد أرادت دائمًا أن تكون لها السيطرة على الخارج القريب؛ روسيا على أراضيها الجليدية الأوروبية والقوقازية، والصين على أراضيها الحدودية في التيبت وكوريا الشمالية ومنغوليا، والهند على الدول الصغيرة في جبال الهيمالايا وسريلانكا وبنغلادش. لكننا لم نر حتى الآن "إمبراطورية الوسط" [(15)] تطلق صواريخ جوّالة محمّلة بقنابل انشطارية على مدى عشرة آلاف كيلومتر من سواحلها، أو تُصدر بيانات لدعم الشعوب الباسكية أو الكردية أو الإيرلندية أو الفلمنكية. ولا رأينا إيران تطوق الولايات المتحدة بقواعد جوية أو برية أو بحرية، متمركزة على الحدود مع المكسيك أو مع كندا، مثلما تنتشر القواعد الأميركية في العراق وأذربيجان وتركمانستان والكويت وقطر وسلطنة عمان. أين الثرى من الثريا بين التهديد المتصوَّر والتهديد الحقيقي؟

على اعتبار أن لأميركا مصالح على جميع النطاقات (tous azimuts)، فإن "ضمان أمن الولايات المتحدة" (الواجب الأول لرئيس الولايات المتحدة، القائد الأعلى (Commander in Chief) بحكم الواقع لحلف شمال الأطلسي) يقتضي توافُر القدرة على استعراض قوةٍ لا تقلّ كونية، هي الوحيدة التي تمتلكها. فميزانية الدفاع الأميركية، البالغة سبعمئة مليار دولار في السنة، تساوي ميزانية جميع البلدان الأخرى مجتمعة، وذلك لحماية أكثر بقع العالم تحصينًا بحكم الطبيعة؛ وحده حلف شمال الأطلسي يمتلك قواعد في القارات الخمس (800 منشأة عسكرية أميركية في الخارج).

إن ما يصنع قوة العالم الجديد هو هذا المزيج الغريب من براغماتيةٍ وروحانية باطنية، ومن حداثةٍ منيعة وصبغة متقادمة على نحو محتدم. وينهل هذا المزيج من فعل حضارة غير قابل للانتقاص: البرمجيات المسيحية، الموروثة عن أول الأديان الكونية في التاريخ. إيحاء ذاتي، إن شئنا، لكنه حَفِيّ [مرحِّب] ومألوف بما فيه الكفاية لكي يمكن للحلفاء الأقل حظًا من لدُن العليّ القدير أن يجدوا فيه منزلًا أو يعلّقوا عليه "السرد الكبير" الخاص بهم: أوروبا، بوصفها "نور العالم"، أو فرنسا، بوصفها "معلمة الجنس البشري". يعلن تسعة أميركيين من أصل عشرة أنهم يؤمنون بإله واحد وشخصي. وقد نشر الإصلاح البروتستانتي التبشير والإيمان بالعصر الألفي السعيد للعصور الأولى، على نحو أفضل بكثير

من الكنيسة الرومانية. ويتجاوز اليوم عدد المبشرين الإنجيليين في العالم عدد المبشرين الكاثوليك الرومانيين. فضمان الخلاص للبشرية هو الحلف الأساس، وهو القانون الحديدي الذي لا محيد عنه؛ إذ لم يجرِ سوى تغيير القوة العسكرية والقيادة العامة منذ حملة بكين في عام 1900 (تحت القيادة الألمانية). ويبقى الامتداد الجاحد للدعوة البولسية [(16)] البعيدة لهداية جميع الأمم (omnes gentes) [إلى العقيدة المسيحية]. فنحن نقدِّر اليوم الصحة أكثر من الخلاص، ولكن ألا تذكّرنا المغامرة الإنسانية أو التدريبات لدى المنظمات غير الحكومية التي تختارها شبيبتنا النبيلة، عبر طريقٍ مختصر، بمهمة شبان "الآباء البيض" بالأمس؟

إن لله الواحد الأحد، من دون شك، مؤتمنًا آخرَ ذا نداء باطني ما وراء البحار وما وراء الجدران: الإسلام السياسي. وفي الدافع الداخلي القوي للحملة الصليبية، إنه منافس ينبغي أن يؤخذ على محمل الجد، لكنه ماضوي [(17)] من جميع الجوانب. وبغض النظر عن العمليات العسكرية المحلية ذات الصدى الواسع لكن غير الحاسمة، كما كان الحال في 9 أيلول / سبتمبر [(18)]، وعلى الرغم من تغطيته الإعلامية الهائلة، لا يمتلك الجهاد العالمي (الذي ينبغي عدم الخلط بينه وبين الجهاد القومي في المناطق الواقعة تحت نير الاحتلال) الوسائل المادية والعسكرية والعلمية والسياسية لتحقيق غايته الجنونية. ومن دون الحديث عن قتله لتسعةٍ من إخوانه في الدين [مسلمين] في مقابل غربيٍّ واحد، فهو لا يتسلط سوى على طوائف دينية مصابة بجنون الاضطِهاد، ولا تجعل منه أيّ عاصمة في العالم الإسلامي، ولا أيّ دولة قائمة، عقيدتَها أو برنامجَها.

## عامل النجاح الثالث: مدرسة أطر العالم

يُؤمّن الغرب تكوين النخب الدولية في جامعاته وكلياته للأعمال (business schools)، ومؤسساته المالية (صندوق النقد الدولي أو البنك الدولي)، ومدارسه العسكرية، ومنظماته التجارية، ومؤسساته الخيرية، وشركاته الكبرى. فلم تسُدْ قط أي إمبراطورية بالقوة وحدها؛ بل هي بحاجة إلى متابعة لدى الطبقات الحاكمة في البلاد الأصلية؛ ويُنتج هذا المَشْتَل انطلاقًا من المركز طبقةً عالمية من المديرين تستوعب لغتها [لغة الإمبراطورية] ومراجعها وضروب نفورها ونماذجها التنظيمية (القانون الأنكلوسكسوني والحوكمة الرشيدة) ومعيارها الاقتصادي (إجماع واشنطن) [(19)]. إنها هذه البوتقة من الكوادر [البشرية] العليا لطبقةٍ متوسطة، هي نفسها مُعولمة، هي التي تُحوّل السيطرة إلى هيمنة، والتبعية إلى انتماء. فما وراء تدريب "القادة الشبان" (young leaders) (ثلاثة آلاف كل عام، بمن فيهم عدة مئات في فرنسا) الذي تنظّمه السفارات الأميركية، تُولِّد هجرة الأدمغة (brain drain) الجذابة لاوعيًا جماعيًّا مشتركًا. ويُرسل "الأمراء الحُمر" الصينيون أبناءهم ليتعلموا في

الولايات المتحدة، ومنها يعودون مجهزين تجهيزًا جيدًا للتسابق إلى الثراء؛ ويجد أبناؤنا أنفسهم، في فرنسا وفي أوروبا، أنه أكثر من طبيعي، بل مما لا غنى عنه، الذهاب إلى مواضع التميز هذه [في الولايات المتحدة] ليصبحوا ذوي أهلية؛ وهو ما لم تكن تستطيعه غير أقلية ضئيلة من ذوي الامتيازات في عام 1950 أو حتى في عام 1980.

فليس ثمة بلد هامشي أو أقلية أو دينَ إلا وله في الولايات المتحدة الأميركية - هذه المضخة الساحبة والكابتة - ممثلون عنه لديهم موطئ قدم راسخة إلى حد ما، ولهم منافذهم إلى الكونغرس وإلى الإدارة [الأميركية]، والذين من شأن أفضل العناصر من بينهم العودة إذا اقتضى الحال إلى بلدهم الأصلي، متخذين منه إقامتهم الثانوية؛ إنهم هؤلاء الأفغان الأميركان، والألبان الأميركان، والمكسيكيون الأميركان، والأفارقة الأميركان. وبإمكان إدارة الموارد البشرية العالمية هذه أن تُخرج في أي لحظة [حامد] كرزاي معيّنًا من جرابها، فلسطينيًّا من البنك الدولي، إيطاليًّا من البنك الاستثماري غولدمان ساكس، ليبيًّا مكوَّنًا وفق قالب جاهز، أو [ميخائيل] ساكاشفيلي [آخر] جورجيًّا. تكافئ هذه السهولة في التنصيب في مواقع قيادية مهارةً سخية لتبنّي العناصر الأجنبية المستقدَمة إلى البلاد، وهو انفتاح ذو نطاق هوياتي لم تجرؤ عليه البتة الإمبراطورية البريطانية في زمانها، وهو الانفتاح الذي يتمخض تحديدًا عن مئات الآلاف من الأطفال بالتبني من جميع الجنسيات. فضلًا عن ذلك، يوفر هذا الوضع إمكانية إرسال سفراء أميركيين متحدرين من بلدان إقامتهم إلى جميع أنحاء العالم تقريبًا. إنه إذًا "كسب للتعاطف والقبول" (captatio benevolentiae) عملي بما فيه الكفاية للاستغناء عن "مرسوم كركلا" [(20)] الذي يضفي الطابع الرسمي على منح الجنسية لجميع الرجال الأحرار من "الأرض المأهولة" (Oekoumène)، كما في عام 212م. فذوو الجنسيات المزدوجة هم كذلك بحكم الأمر الواقع (de facto) وليس بحكم القانون (de jure).

تحظى الصين والهند ومصر، وحتى الدول الصغيرة مثل إسرائيل أو أرمينيا، بشتات دؤوب ومخلص للتأثير [في الولايات المتحدة]. ونحن نعلم ثقل الثلاثين مليون صيني في المهجر في جنوب شرق آسيا. وأميركا، وهي التي ليست بقدر بلدان الشمال الأوروبي أرض هجرةٍ إلى الخارج (émigration)، وإنما أرض هجرةٍ وافدة (immigration)[(21)]، تحقِّق أفضل من ذلك: إن لديها 42 مليون مهاجر فوق أراضيها. وهي لا تملك شتاتًا خاصًّا بها، بل لديها فوق أراضيها كل الشتات (الهسباني، والآسيوي، والأفريقي). المنافسون الرئيسيون هم أحاديو القبائل أو أحاديو الشتات. فوحدها إذًا البلدان الغربية، وأميركا الشمالية في المقام الأول، تتوفر على تعدد الجسور نحو الأطراف المتباعدة (فرنسا مثلًا، نحو شمال أفريقيا، أو مالي، أو إسرائيل، أو فيتنام). وهذه جائزة ترضية؛ وهي دليل على أن قلب الشر خيرًا وقلب الخير شرًّا هو مربّع من المفاجآت لا

نهاية له. ويشكو الفقير الأوروبي من أنه لم يعد يشعر أنه في داره؛ وهذا شعور يمكن تفسيره. وإذ يمكننا فهم هذا الشعور، أليس "الغزو" العكسي للحواضر من لدُن أحفاد أولئك الذين جرى غزوهم (عكسٌ وجيه لمجرى الأمور) هو ما من شأنه أن يسمح لذريتهم بأن يشعروا غدًا أنهم في دارهم مع فارق عشرة خطوط للعرض؟

**عامل النجاح الرابع: تنسيق الحساسيات الإنسانية**

يظهر كما لو كان أمرًا عاديًّا أن يكون الدولار هو العملة الاحتياطية للكون منذ عام 1945، ما يسمح على وجه الخصوص للولايات المتحدة الأميركية بالاستدانة من دون أن تكابد عناءً يُذكر. فلا أحد يُجبَر عليه بالقسر. إنه قبول طبيعي، يدين بالتأكيد كثيرًا للقوة العسكرية. فحتى لا تأتي إلى البلدان الخليجية المصدرة للنفط الفكرة السخيفة لـ "فوترة" البرميل باليورو وليس بالدولار، ينبغي أن توجد القدرة على أن يُضمن لهم في المقابل الأمن إزاء الجيران الفُرس أو غيرهم. لكن هذا الإجماع في الآراء لن يبدو طبيعيًّا بهذا القدر من دون إلحاقه بالقوة الناعمة (soft power). فأول عشر وكالات للإعلان في العالم، من حيث الإيرادات، هي غربية. وبعشرة أفلام، تضمن هوليوود 50 في المئة من شبابيك التذاكر في الصين. لذا يُفلت البُعد الخارق الصيني إلى حد بعيد من "إمبراطورية الوسط": "حرب النجوم" (Star Wars)، "أفاتار" (Avatar)، "باتمان" (Batman)، ماكدونالدز، الفن المعاصر، الجينز الأزرق، البيسبول (تظل كرة القدم، على الرغم من اسمها، لاتينية)، وسواها. وفي علاقة الحب - الكراهية والتنافر - الإغواء التي يمارسها الغرب على الدول المحيطة به، حتى لو كانت مأهولة أكثر منه بكثير وحاملةً لثقافات عتيقة وراقية؛ فالانتشار من طريق الصوت والصورة لنمطٍ ولمستوى معيشي لا يضاهَيان يستحق كل الدعايات، بل يستغني عنها. فليست الولايات المتحدة بحاجة إلى معاهد ثقافية في الخارج، مثل معاهد سرفانتس [الإسباني] أو كونفوشيوس [الصيني]، من أجل "الختم بالطابع"، والإغواء، والأسر. ألم تفز كوكا كولا في فيتنام بالحرب التي خسرها الجنود الأميركيون؟

أما فردريك مارتل، مؤلّف أحد الكتب الأكثر مبيعًا بعنوان **الاتجاه السائد** [22]، فالنتيجة بالنسبة إليه هي أن الغرب يجد نفسه قبلة الأنظار والاستهدافات، وحاملَ لواء كل معارك التحرر الثقافي في الشرق والجنوب (مثليّو الجنس، النساء، السود، الأقليات). ومثلما كان المنشقون عن الشيوعية أبناءَ موسيقى الروك أند رول، فمن المرجح جدًّا أن يكون المنشقون عن الإسلام السياسي أبناء ديزني ومادونا، أكثر، في أي حال، من كونهم أبناء مونتسكيو أو إرفينغ كريستول [23]. كما أن الترفيه (entertainment) الرأسمالي يصنع الذهب من معارضة الترفيه؛ إذ إن "الاتجاه السائد" [24] يرتشف مواهب معانديه. من دون شك ليس لنوام تشومسكي، أو لروبرت فيسك، أو لطارق علي، مدخل إلى

صحيفة **نيويورك تايمز** (*The New York Time*)؛ لكن إدوارد سعيد أو هوارد زين (Howard Zinn) كانت لهما مداخلهما. وتسمح غزارة انتشار الصحف الصغيرة والإذاعات والمجلات ومواقع إنترنت القاعدة الشعبية (grassroots) لهذه الأصوات الناشزة بالنفاذ وإيجاد صدى إلى ما هو أبعد من البيئة المخفية [(25)]. فمايكل مور، وبوب ديلان، وأصحاب الفيلم الوثائقي "مهمة داخلية" [(26)] لديهم وضع وسمعة معيّنة (مثلما هي لكروغمان أو ستيغليتز على سبيل المثال في مجال الاقتصاد). ولدى العالم الأنكلوسكسوني، بحكم قانون الربح وحرية الرأي، هذه القدرة الإنزيمية على إعادة تدوير الخلايا الحمراء، أو حتى الخلايا الزعفرانية، وابتلاعها. ويُمنح الدالاي لاما، وهو الذي تتعارض تعاليمه البوذية بصرامة مع استخدامنا للعالم، شرفَ مواطنٍ فخري في كل مكان. ومن هنا فإن مفارقة إمبراطورية إنزيمية لا تضع، في الداخل، معاداة الإمبريالية أو الفوضوية خارج نطاق القانون، حيث يُسمح بانتقاد الضم غير القانوني للضفة الغربية من دون أن يُعَد صاحب هذا الانتقاد شخصًا مقرفًا، وحيث يُسمح للباحث الجاد في العلوم السياسية، وفي مجلة جادة، أن يجادل لمصلحة القنبلة النووية الإيرانية بوصفها ضمانًا للسلام وليست نهاية للعالم (وهو رأي من شأنه أن يحشد في باريس في ساعة واحدة حراسنا الساهرين). فشرطة الفكر هي أشد صرامة في فرنسا، لكن كل شيء يجري كما لو أن رأسَ حربة هذه الحضارة أو مركز ثقلها قد جعل صيغة نيتشه أكثر راديكالية عبر عكسها: كل شيءٍ يريد قتلي سوف يجعلني أقوى. إن معرفة كيفية اكتساب المناعة ضد السم من خلال الابتلاع المنتظم للسلبية النقدية هي عبقرية الغرب، وهي في الآن ذاته ديناميته ودرعه الواقي.

**عامل النجاح الخامس: الابتكار العلمي والتقني**

كان ينبغي أن نبدأ من هنا، من التميز في البحث والتطوير، بوصفه سبب تقدمٍ واضح في هذا المجال الحاسم. من دون شك سوف يتقلص هذا التقدم؛ إذ يوجد سلفًا مهندسون هنود وصينيون أكثر مما يوجد مهندسون أميركيون. بيد أن قائمة جائزة نوبل في العلوم الصلبة، وتصنيف شنغهاي [للجامعات العالمية]، والجدول المقارن لبراءات الاختراع الصناعية، من شأنها أن تُطمئن القلقين بهذا الشأن. فمدرسة العالم ومحكمته [أي أميركا] هما أيضًا موطن المختبر؛ فمفاتيح المستقبل، في ما يتعلق بالعلم، لا تزال في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا وفي وادي السيليكون.

ولنلاحظ تأثيرًا غريبًا لهذا التركيز اللافت للأدمغة. إنها مسألة متفَق عليها أن العالم المعلوماتي يفرض الإنكليزية بوصفها "لغة كواني مشتركة" [(27)] على القارات الخمس (وهي لغة معولمة سلفًا، في الواقع، على يد الإمبراطورية البريطانية)، وأن لغة التواصل هي طريقة للتفكير بقدر ما هي وسيلة (فلم يكن من شأن المسيحية أن توجد من دون اللغة اليونانية). وليس من

المستغرب أن الجيش المصري هو ملحق للجيش الأميركي ما دام هذا يوفر له التمويل، ويكوّن ضباطه في مدارسه، ويعالجهم في مستشفياته، ويوفر له بشكل خاص، كمجال محفوظ بحرص، جميعَ أنظمة أسلحته وبرمجياته المعلوماتية؛ فهكذا تجري الأمور في العادة (business as usual).

لكن كون ميدان التحرير قد اشتغل بشبكة الإنترنت، وبالفيسبوك والرسائل الهاتفية القصيرة - وبمعرفة عملية متأتية من حرم الجامعات بكاليفورنيا - هي مسألة أكثر غرابة. فأدوات التمردات المعادية للغرب هي غربية، وأتباع أميركا يجري التخلص منهم على نحو غير مباشر على يد أميركا نفسها. وهذه نمذجة للسلوكيات التي يمكن بالتأكيد أن ينقلب سحرها على الساحر "الممتهن" [المحترف]؛ لكنها تسمح له، من خلال الشركات والأقدام الكاذبة (pseudopodes)، بأن ينشط في الفرن والمطحنة في آن: أوكار للتعذيب وإخوان مسلمون تحت التعذيب. ونحن نعلم أن تنظيم القاعدة قد اتّخذ هيكلةً على غرار هيكلة الماكدونالدز، من حيث إن الشركة القابضة توزّع حق الاستثمار باسم علامتها التجارية هنا وهناك [في العالم]، غير أن منعطف التكنولوجيات الجديدة "صُنع في أميركا"، مع شبكة الإنترنت العالمية، ينشر ما يصنع روح الحداثة ويعززه، أي أسبقية الفرد على الجماعة. إضافةً إلى كون ربط شبكات الإنترنت في ما بينها يُتوّج أفقية العلاقات الاجتماعية، خارج التسلسل الهرمي ومن دون رقابة من فوق، وهذا ما يمنح الأفراد هامش مبادرةٍ غير مسبوق. ومن ثم، يمكن قراءة ثورة المعلومات، بقالب غربي، باعتبارها خدمة ما بعد البيع لرأسماليةٍ بروتستانتية مُبطّنة.

ولننتقل الآن إلى نقاط الضعف.

**العائق الأول: الغطرسة العالمية المفرطة**

الكبرياء، الإفراط، الغطرسة؛ هي ما ينبغي على البطل التراجيدي أن يُكفّر عنها عاجلًا أم آجلًا. فقد تغيّر سُلّم فقدان الشعور بميزان الأشياء، وهو تقليد إمبراطوري قديم. وبوصفهم أنصارًا للنسبية، وواعين بكونهم عرضةً للسقوط، ومهما كانوا مصابين بجنون العظمة، لم يزعم الأسلاف الهولنديون والإسبان والفرنسيون والبريطانيون (كي نبقى ضمن نطاق الغرب) إعادةَ تأهيل، أو تأطير، أو إلهام الكرة [الأرضية] المؤلّفة من تربة وماء، والتي كانت رؤيتها، في الواقع وعلى نحو مباشر، بعيدة من المتناول من الناحية الفنية (لم يكن غوغل يوجد بعد، ولا الأقمار الصناعية للمراقبة). وكان يكفي ربع مساحة الكوكب الأرضي لإرضاء الملكة فيكتوريا. وحدهم أبناء مزعومون ومعتوهون للإسكندر، لم يكن لهم غد عظيم، على شاكلة نابليون عام 1808 أو رايخ الألف سنة عام 1941، قد أرادوا القيام بأفضل من ذلك. وفي عام 1989، عقب الاندحار السوفياتي، أتت للتحالف الغربي أوهام العظمة. فقد تبجح هذا التحالف بإنشاء "نظام عالمي جديد من فانكوفر إلى فلاديفوستوك" [(28)]. و عدَّد

[كثّرَ] هذا التحالف "اتفاقيات الشراكة" إلى حدود الشرق الأوسط (إسرائيل والأردن)، والقوقاز، وآسيا الوسطى؛ حتى إنه بعد بلدان أوروبا الوسطى والشرقية، تَصوَّر إدخال موسكو إلى فلكه (في تلك الفترة التي كان يحط فيها المثقفون والمحاضرون الباريسيون رحالهم من أجل إعادة تدوير الروح السلافية التوتاليتارية في التعليم المقدس الجديد). غير أن ما كان مستحيلًا بالأمس هو أشد استحالة اليوم، مع التزايد الواسع للجهات الفاعلة، سواء على المستوى ما دون الدولتي أو ما فوق الدولتي. ولن يمكن أيّ "باكس أميركانا" [سلامٍ أميركي] - أو غدًا "باكس سينيكا" [سلامٍ صيني] - الحفاظ على النظام والأمن حيث يشبه عملُ الأمم المتحدة نفسه فلّينةً طافية على الماء. ولا توجد أي قوة عظمى، سواء مع درع مضاد للصواريخ أو من دونه، بمنأى عن غاز السارين أو عن شاحنة مفخخة، فضلًا عن الصدمة العكسية لوباء أو لتسونامي. إن الرغبة في تحقيق الاستقرار في عالم لا يعيش سوى بكونه غير مستقر، عالم من شأنه أن يكون أشد عنفًا ونزاعًا من كونه خاليًا من الأسلحة النووية، مرخيًا العنان للأسلحة التقليدية من جهة ومن أخرى، هي بمنزلة هذيان على طريقة بانغلوس [29]، أو على طريقة سترينجلوف [30]. ولم نكن بعيدين جدًّا من ذلك، مع اعتداد المحافظين الجدد المفرط بالنصر بعد انهيار الاتحاد السوفياتي.

وقد أطلق المؤرخ الأميركي بول كينيدي (Paul Kennedy) صفارة الإنذار باستحضاره لحظةَ تجاوُز طموح المركز قدراته الماديةَ في المحيط؛ لحظةً تقليدية من "التوسع الإمبراطوري المفرط". غير أن هذه القدرات، مع الإلكترونيات والقطاع الرقمي، قد حققت منذ ثلاثة عقود قفزة هائلة إلى الأمام، وأن الامتداد إلى الآفاق والاستجلاب (outreach) لم يعد هو نفسه. فلم يعد مستحيلًا من الناحية الفنية رؤية كل شيء، وسماع كل شيء، وتفكيك رموز كل شيء، حتى لو كان ذلك في الأقاصي. ولم يعد مستحيلًا كذلك قتلُ مشتبهٍ به من على شاشة على بعد عشرة آلاف كيلومتر، بصاروخ هلفاير أُطلق من طائرة من دون طيار "بريداتور" (Predator)، على سبيل المثال. ولم يعد مستحيلًا شلّ نظام قيادة خصمٍ أو منافس مع دودة كمبيوتر من نوع ستَكسنيت (Stuxnet). ففي أعقاب قنبلَتَي هيروشيما وناغازاكي، أصبح بإمكان الغرب وفق صيغة الجيل الجديد أن يسمح لنفسه بأضرار جانبية لا تضاهيها تلك التي ارتكبتها الفيالق الرومانية أو النابليونية. ويُعرّضه تفوّقه الجوي والفضائي لطغيان أكبر من سيطرة العَلَم البريطاني، [المسمى Union Jack]، على المحيطات في القرن التاسع عشر، لأنه فقَد حكمة البريطانيين على الطريق، ولأنه شحيحٌ في [استخدام] قوات التدخل السريع، ومقتصر على البقاء في عرض البحر. ويؤكد على نحو غريب "رشق الشرطة" [31]، خارج أي إطار إقليمي وقانوني محدَّد، تنبؤات آخر كتاب لكارل شميت (Carl Schmitt)

(1985 - 1888) بشأن نقل موقع الحرب على نحو مطلق وتحوُّل العمليات العسكرية إلى إغارات للشرطة فحسب. لكن ما هو محلي يظل قوة الضعيف، وفي مقابل ذلك يصبح ما هو عالمي ضعفَ القوي.

**العائق الثاني: عقدة للتفوق مسببة للعمى**

التيقن من امتلاك اليد العليا يجعل المرء غير مبالٍ بحقائق الواقع الخشنة في الدرك الأسفل. والاتصال بالأرض قاتل بالنسبة إلى المحلّق المِقرابي، سوى لينثني على "منطقته الخضراء". فالعملاق أنتايوس [(32)] كان يجدد قوته من طريق لمس الأرض؛ بيد أن العكس هو الصحيح هنا. فعلى نحو غريب، تُظهر الحضارة التي اخترعت الإثنولوجيا - إثنولوجيا مونتاين وإثنولوجيا ليفي ستروس - في مسلكها الدولي، مزيجًا مثيرًا للقلق من الغطرسة والجهل، كان بالأمس البعيد ليأسف عليه سترابو أو بوليبيوس أو من على شاكلتهما. وبوصفه في الآن ذاته سجين كونيته المجرَّدة وتجهيزاته التقنية عن بُعد، ومُبهَرًا بألعابه النارية، يلزم المبشر بالتبشيريات المخلِّصة (messianique)، كما رأينا ذلك في العراق أو أفغانستان، سنوات عدة ليكتشف، في عيون السكان الأصليين، أنه غازٍ ومحتل. وهو يُشبع بوجوده مسرحَ عملياتٍ لا يعرف ماضيه ولا لغته، ولا مطبخه ولا دينه، ولا بنيته الأسرية، ولا ردات فعله الأساسية. فيستطيع بطمأنينة إشعال النار بالقرآن، والتبول على جثة العدو. إنه يجد ذلك ممتعًا (fun). إن شرطي العالم يجهل العالم، ولا يريد أن يعرف أيّ سُلّمٍ للقيم غير سلّم قيمه. وهذا يُدفع ثمنه.

فالديمقراطية في المطلق، وهي بداية الاقتحامات والخطابات الوعظية ونهايتها، والتيمة غير المقيَّدة لليبرالي التي يُحظر تقريبًا الكشف عما بداخلها، تضع له حجابًا على العين. لننسَ العيب الفكري، أي عملية المحو التي تجري من خلال استعمال الأحرف الكبيرة غير المشكوك فيها [(33)] لكل ما يفصل بشكل ملموس الديمقراطية "التوافقية" [(34)] (لبنان، مع توازنات جماعاته الأهلية) عن الديمقراطية الإثنية (بلغاريا وإسرائيل وتركيا، مع مواطنيهم من الدرجة الأولى والثانية، وفقًا لأصلهم القومي)، وعن الديمقراطية البرلمانية (المملكة المتحدة)، وعن الديمقراطية العَلمانية (فرنسا)، وعن الديمقراطية الدينية (إيران)، وعن الديمقراطية الإيمانية (fidéiste) أو ديمقراطية حكم الأغنياء (ploutocratique) (الولايات المتحدة، عيد الشكر زائد الدعاية السياسية المدفوعة)، وسواها.

والأكثر جللًا من ذلك هي التداعيات العملية، بمعنى نسيان أن العالم ليس مؤلّفًا من أفراد (صوت واحد لشخص واحد (one man, one vote))وإنما من جماعات أهلية، وطنية، أو دينية، أو قبلية، تتحكم في ولاءاته وسلوكه. إن الذرّة التي تذروها الرياح، من دون تاريخ ولا انتماء، السائرة في فلك رغباتها والمتيقنة أن المال يكفي لكل شيء، بما في ذلك خلق الاندماج الاجتماعي،

هي ما يسميه الإنسان الغربي "الحداثة"، وهذا الذي، فور أن يضع قدمه خارج نطاقه، سيجد نفسه أمام مشكلة عُضال: التقليد. وينزلق الدخيل، مستقوٍ بطائراته الهليكوبتر التي تنفث النار، وبرزماته من الدولارات، وبمنظماته غير الحكومية (وهي نموذج مثالي للجمعي ما دامت انضواءً فرديًّا وطوعيًّا قابلًا للفصل وغير ملتصقٍ بالسياق) على سطح البلدان المحتلة وينبغي عليه سريعًا، قبل أن يلوذ بالفرار من البلاد، أن ينكفئ على "منطقته الخضراء" أو معسكراته المحصَّنة.

ويولي الجيش الأميركي والجنرال بترايوس (David Petraeus) أهمية وتقديرًا كبيرين، على ما يبدو، للكولونيل دافيد غالولا [35]، مؤلّف كتاب **دليل مكافحة التمرد** (*Counterinsurgency*). وكان ينبغي لأولئك الذين خسروا حرب أفغانستان أن يتذكروا أن فرنسا، مع مولّداتها الكهربائية "الجيجين" [36] ومنظّريها، قد خسرت في نهاية المطاف حرب الجزائر، وكان ينبغي عليهم أن يراجعوا بدلًا من ذلك عالم الإثنولوجيا موريس غودلييه (Maurice Godelier). كانوا سيتعلمون حينئذ أن القبيلة، بوصفها تشكيلة جماعية ذات مستقبل واعد، تمثّل الوحدة الأساسية لما يزيد على نصف العالم من الممالك البدوية في أميركا الهندية الأصلية، مرورًا بآسيا الوسطى، وأفريقيا، وجنوب أوروبا (جريمة الشرف الألبانية أو الصقلية). وكانوا سيتعلمون أن هذا النصف من الكرة الأرضية ليس لديه كبوصلةٍ حقُّ الفرد ولا المصلحة الفردية.

ويغيب عن الفارس المطوف [37] المستعجل القضية الساذجة لمقاومات السكان الأصليين لـ "إضفاء الطابع الروماني": الدفاع عن النفس المحصَّن، المؤسف من دون شك، والخسيس والرجعي. لكن لا مجموعة بشرية، وإن كانت تود أن تتلقى يد العون من الخارج، تقبل أن ترى في عقر دارها أجانبَ يمسكون دفة القيادة. وتحمل ردة الفعل هذه ذات الطبيعة الحيوانية اسمًا نبيلًا: السيادة.

في أوروبا، بصرف النظر عن بريطانيا، يكون فقدان الإدراك الإثنيِّ على نحو [مستوى] يجعل هذه المفاهيم (في الواقع هذه المشاعر) للشرف والعزة الوطنية تثير السخرية شفقةً أو انذهالًا؛ وذلك بمعدل شخصين بالغين من أصل كل ثلاثة أشخاص أعمارهم أقل من خمسين عامًا (من دون حساب "القادة الشبان" (young leaders) الفخورين بالركض مرتدين قميص إدارة شرطة مدينة نيويورك (NYPD)). وفي الولايات المتحدة، تمنع المركزية الإثنية (ethnocentrisme) من تصور أن هذه المشاعر النبيلة يمكن أن تكون لشعوب متخلفة. ففي بروكسل، نريد أن ننسى ما هو عليه الأمر، وفي نيويورك، لا نشعر حتى بالحاجة إلى معرفة ذلك. وبالنسبة إلى شخص ما بعد قومي متحرر، مثل شخص ما بعد حداثي من سكان حي سان جرمان دي بريه [38]، يرى في الدولة القومية أثرًا أو مزحة، فإنها فكرة طفولية مؤسفة أن أكثر من

خمسين شعبًا على الأقل على استعداد للقتال من أجل الحصول على دولة قومية مع النشيد الوطني والعَلَم. وبالنسبة إلى "الولادة الجديدة" (born - again) لحزب حركة الشاي [39]، الذي يحاكي تشارلتون هستون وجون واين [أي الخير]، أن يمكّن إنسانًا جديرًا بهذا الاسم من ارتداء شيء آخر غير العَلَم [الأميركي] المرصع بالنجوم، ويده على قلبه، فهذا يندرج ضمن محور الشر. وسواء أكان قصورًا أم إفراطًا في الاعتبار، فإن النتيجة منطقة رمادية.

ليس أوباما الذي وُلد في هاواي ونشأ في إندونيسيا والذي برع في التسويق، ريفيًّا جلفًا ومصابًا بالتوحد مثل جورج بوش الابن الذي فتن القادة الأوروبيين (من بلير إلى ساركوزي) إلى حد بعيد هو يعلم أنه يوجد شيء من الآخر في هذه الحياة، وهذه مسألة جديدة؛ ومن ثم، فلديه تأدب ولطف أكثر في طريقة المعاملة. بيد أن جعل هذا التصويب تحولًا في الاعتقاد إلى التعددية هو - كما جرى في أوروبا - بمنزلة توهّم الرغبات المحلية على أنها حقيقة. وهو أيضًا بمنزلة نسيان أن أميركيًّا من الأقاصي هو أكثر تشبعًا بالأساطير المؤسِّسة لبلاده من متحدر أصلي من تكساس، بل أشد اقتناعًا بأن عليه الدفاع بضراوة عن الامتيازات الوجودية لأرضه الموعودة؛ وذلك بكل الوسائل، بما فيها - وبذكاء - الوسائل السرية، إضافة إلى التخريب السيبراني والطائرات من دون طيار القاتلة التي تضرب دولًا ذات سيادة (باكستان واليمن، وغيرهما). وقد أصدر البيت الأبيض خلال سنتين ونصف السنة [من عهد أوباما]، وفقًا لمصادر أميركية، تراخيص للقتل الاستهدافي ست مرات أكثر من جورج بوش الابن في ثماني سنوات: 265 رخصة بالقتل [لأوباما] في مقابل 40 [لبوش]، مع سقوط عدد لا يحصى من الضحايا المدنيين الذين يكونون حول نقاط التصادم، فيما يكون من بين الناجين مجندون جيدون لتنظيم القاعدة. ويرجَّح أن تعداد قيادة العمليات الخاصة (Special Operations Command (SOCOM))، والتي حظيت بميزانية تضاعفت خلال عشر سنوات من 2.3 إلى 6.3 مليار دولار، قد وصل إلى 60 ألف فرد موزَّعين على ستين بلدًا. ويناط "جيش الرئيس" بـ "جماعة الاستخبارات" وليس بالبنتاغون، لتجنُّب أي تورط أو تعقيد قضائي.

وتنتشر الغطرسة المفرطة في جميع الاتجاهات وبالوسائل كافة؛ لأنها مدرجة في غور الأعماق. فالفرنسي المعاصر يخطئ بسبب افتقاره إلى تقدير الذات، أما الأميركي فهو يفرط في تقديرها؛ إذ يرى نفسه المصطفى من العناية الإلهية، وحامل الوحي الإلهي. وسواء أكان أبيض أم أسود أم مولَّدًا [خلاسيًّا] أم أصفر، فإن رئيس الولايات المتحدة كان [في الماضي] وهو [في الحاضر] وسيكون [في المستقبل] "نصيرًا للاستثنائية" ومُشربًا بالإحساس بالمهمة العُلوية. ويُعتبر المتغيّر الوحيد الذي يستحق الاهتمام هو كيف وإلى أي مدى؟ فعقدة التفوق تَلزم قليلًا، ولكن ليس كثيرًا؛ ذلك أن الغطرسة المفرطة، لنتذكر ذلك، ليست هي الكبرياء المذنب فحسب، وإنما أيضًا

الحماسة، والهمة العالية، والحمية الحيوية. وحدها الدول ذات الروحانية الباطنية أو الأساطير القومية القوية يمكن أن تكون لها سياسة خارجية وثيقة، مع ما تقتضيه على المستوى الخارجي من ضراوة ولاشرعوية [(40)]، وعلى المستوى الداخلي أيضًا من تنازلات وتضحيات (ولو لم تكن إلا على مستوى الميزانية). إنه "بيان القدر" [(41)] ومعاهدة التحالف مع الرب يهوَه؛ إذ لدى الولايات المتحدة وإسرائيل، وهما أمتان لا تشكان في أصلهما الخارق، نداء باطني للاستفادة من هذا الوضع الاستثنائي. وهذه مسألة تخص الشعوب بقدر ما تخص الأفراد؛ فأولئك الذين يؤمنون أنهم يحملون في داخلهم شيئًا غير قابل للاختزال إلى الواقع البشري المألوف، لا يشعرون أنهم ملزمون بطاعة المعايير أو المعاهدات أو المواثيق التي لا يمكن أن تنطبق إلا على الناس العاديين. فالولايات المتحدة والصين وإسرائيل، مثلها مثل سورية، قد اعترضت رسميًّا في عام 1998 على إنشاء المحكمة الجنائية الدولية (نظام روما)، وهي محكمة دائمة لها ولاية قضائية في ما يخص الإبادة الجماعية والجرائم ضد الإنسانية وجرائم الحرب؛ بل أفضل من ذلك، حصلت الولايات المتحدة من ستين دولة، تحت تهديد قطع الإمدادات أو تدابير انتقامية دبلوماسية، على ضمان مكتوب، وعلى نحو يسري في المستقبل، يعطي حصانة للعسكريين الأميركيين؛ مُفرِغةً على هذا النحو المعاهدةَ من مضمونها. فقد صارت مسألة أن يخضع جندي أميركي للمحظورات القانونية نفسها التي يخضع لها أي جندي نكرة آخر عرضةً للعقوبات. وأصبح التوصيف متفائلًا في هذه العدالة الدولية؛ إذ تنطلق مذاهب الإيمان بتعدد الآلهة الوثنية، في مواجهة عقيدة التوحيد، دائمًا من وضعية الخاسر في سباق نحو الهيمنة (ومن شأن الاستثناء العبري في مقابل الإمبراطورية الرومانية أن يُجري نقاشه عن كثب)، كما أن الأديان غير اللاهوتية (الطاوية أو البوذية أو الكونفوشيوسية) التي تنكفئ، كما هو الحال في الصين، على "المحايثة [(42)] العَرَضية للمقدس"، ليست في وضع جيد بقدر الثقافات المتصلة بالمبدأ الإلهي المتسامي [(43)] عن النظام العالمي لفرض نظامها الخاص أو اقتراحه على العالم بأسره. وتسدّ الدولة العادية، المستنِدة إلى ما هو عَلماني، الثغرات يومًا فيوم من دون جزع إزاء المستقبل. وهو ما يمكن نسخه إلى شكل إيجابي: من لا يُؤمن بالسماء ويصمد، في مواجهة خطر الموت، لديه جدارة أهلية أكبر ممن يُؤمن بالسماء.

**العائق الثالث: إنكار التضحية**

في 24 آب / أغسطس 1914، قُتل 26 ألف جندي فرنسي في جبهة القتال، ولم يخرج الرئيس بوانكاريه (Raymond Poincaré) من مكتبه؛ فغدًا سيكون أفضل (في الواقع، كان هناك ألف قتيل يوميًّا في المتوسط بين عامي 1914 و1918). وفي 18 تموز / يوليو 2011، قُتل سبعة جنود فرنسيين في كمين في أفغانستان، فجرى حفل تكريم من الأمة، وقدَّم رئيس البلد خطاب ثناء في

حفل التأبين، وهو الذي سيسافر عقب ذلك إلى المكان عينه، ومن ثم تحدث خضّة إعلامية. ثم سيجري تقديم طلب تعويض من إحدى أسر الضحايا (بسبب "سوء الإدارة"). ولم يسفر فقدان الحياة البشرية، في الهند الصينية والجزائر، حيث المقارنة أدق وفي نطاق مختلف تمامًا، عن تظاهرات وتظلمات مماثلة.

إن الانعكاس - على مثل هذا المدى الزمني القصير - لعلاقتنا الفردية والاجتماعية مع الموت هو ظاهرة صاعقة وذات عواقب وخيمة. فلم يعد لدى الغرب، في غور أعماقه، معنويات أخلاقياته ولا بسالة قيمها. وهو يصمد بدرجة أقل مما يعد به أو يُعلنه. فقد ازدادت القوة، لكن الحماسة خبت. فمن رهاب المواجهة الفعلية، إلى المثل الأعلى السوريالي للحرب من دون أي وفاة، واستبدال تبجيل البطل بتبجيل الضحية، ونهاية الخدمة العسكرية الإلزامية، واختفاء روح الدفاع، والإحالة إلى متحف كرنافاليه للمواطن الجندي [44] لإيجاد جيوش محترفة (مؤلّفة، إلى أقصى حد ممكن، من هيلوتس ومُتحدرين) [45]: أصبح جوليات [جالوت] غضًّا ناعمًا [46]. ربما هذا هو الثمن الواجب دفعه لرفع مستوى المعيشة، وانتصار القانون على الواجب، وحتمية السعادة، وواجب الملذة، إضافةً إلى الارتداد العميق للزيادة المفرطة في التجهيز التكنولوجي. وتُعظّم المعدات الإلكترونية في مجال الطيران للمحافظين الجدد المقيمين للعدالة - "ماذا ننتظر لكي نُرسل الطائرات؟" (على بلغراد، كابول، طرابلس [الغرب]، دمشق، طهران، الخرطوم، مقديشو، هراري، تمبكتو، بعلبك، بيشاور، وغيرها، في انتظار إرسالها على القاهرة والجزائر العاصمة) - السيطرة الهادئة على المجال الجوي، في أفريقيا في كل الحالات، مع احترام مبدأ الحيطة: فزُورو (Zorro) هذه الخلاصات المستبقة لن يكون على متن الطائرة، وإنما على الشاشة. وبعد الزمن الذي كان يجري فيه الدخول إلى التاريخ عبر الفوز بالمعارك، جاء الزمن الذي يجري فيه الخروج من التاريخ من أجل الفوز بالشاشات، وبنقاط للشعبية [في استطلاعات الرأي والانتخابات].

إنه الانتصار الإعلامي لمن يضرب وهو في مأمن؛ فالمزاج العام تدخّلي والمناخ العام داعٍ إلى السلم، وهذا تناقض. فعلى نصير الطرح الغربي أن يتقدم كصديق للجنس البشري من أجل تحييد التحفظات. والخوف من الواقع يصل إلى حد منعه من كلمة الحرب، لفائدة "عملية حفظ السلام"، أو "حماية الأهالي". إذًا، تميل الأعمال الحربية - تحت كنف "علماء نفسِ التلاعب بالرأي العام" - إلى لبس قناع الإغاثة الإنسانية، مع جنود سيكون من مصلحتهم أن يقدموا أنفسهم للجمهور بوصفهم مساعدين اجتماعيين. والأشد حذرًا منهم يصبغ خوذته باللون الأزرق؛ وهي ممارسات صلبة، ومُثُل عليا رخوة. ويتجاهل معارضو هذا الطرح الغربي المتعصبون هذه الفجوة؛ فمن دون أن تكون

لديهم مجموعات الرعب نفسها، ولو من بعيد، يفكرون بصلابة ويتصرفون بصلابة.

بعبارة أخرى: إذا كان لدى الشرق حس المقدس، فإن الغرب (وأوروبا على وجه الخصوص) قد تخلّص منه. ومن هنا سوء فهم الغرب العميق (أو ذعره المذهول) أمام غريبي الأطوار الذين يفضّلون، بدلًا من تحقيق مصالح مادية مباشرة، النعيمَ في الآخرة على السعادة على هذه الأرض (القنبلة البشرية، أو human bomb)؛ ما دام صحيحًا أنه يوجد على وجه الأرض، وعلى نحو متزايد، من تبدو لهم "الفكرة الجديدة في أوروبا" قد عفا عليها الزمن وخسيسة. لكن على اعتبار أن المقدس هو ما يقود التضحية ويمنع تدنيس المقدسات، يأتي من ثم قلق يشل الحركة على أرض الميدان إزاء "حماية ما هو شخصي"؛ وتأتي على مستوى المنبع [القادة] داخل البلاد الحاجة إلى التملص، وإلى الخطاب المزدوج، وإلى الأكاذيب الحامية نفسها (التي أصبحت غير آمنة بفعل التسريبات من نوع ويكيليكس وتسهيلات المعلومات غير المسبوقة). ويتضارب الحفاظ على لطف جو المساء مع الروح الصليبية، التي تأتي بالأحرى في الصباح الباكر.

**العائق الرابع: سجن الزمن القصير**

تفاقمت الإعاقة المتأصِّلة في الديمقراطيات التي "لا تواجه المشاكل المتأتية من الخارج إلا لأسباب متأتية من الداخل"، كما أوضح ذلك جيدًا توكفيل، مع بروز الدولة الفاتنة وأنظمة الرأي في الواجهة. فلم يعد ينبغي للسلطة التنفيذية، وهي المهمومة بإعادة انتخابها، أن تطيع إيعازات الكونغرس أو ناخبيها فحسب (حتى ولو اقتضى ذلك إغضاب تركيا، وهي بلد رئيس، من أجل إرضاء الأرمن في إقليم "بوش دو رون" [الفرنسي]، أو، كما بالنسبة إلى ما وراء الأطلسي [الولايات المتحدة]، استعداء مليار مسلم من أجل استرضاء جماعة أهلية داخلية مؤثّرة) [47]. الجديد هو واجب الطرق المختصرة والطرق السريعة. فقد أصبحت النتائج السريعة مطلوبة.

ويُلزِم ذلك اختصارَ مدة الولايات الانتخابية (من فترة سبع سنوات إلى فترة خمس سنوات، على سبيل المثال) [48]، والاستبدال السريع للفِرق، وخفض دورات الانتباه (للطالب كما لمُشاهد التلفزيون) وهاجس التغيير السريع والمستمر لقنوات التلفزيون بواسطة جهاز التحكم. ويتزامن ذلك مع معاودة ظهور الأزمنة الطويلة للذاكرة الإثنية وذاكرة الخلاص الديني، مع عودة الإنكا، أو الزولو، أو الأمازيغ، هنا، وعودة الدالاي لاما، أو الحاخام، أو آية الله، أو رئيس الدير الأرثوذكسي، هناك. إنه تبادل مأسوف له للأدوار والمواقع. فالزمن القصير للناقمين في الشمال متغيّر الطور نسبةً إلى زمن الناقمين في الجنوب. فهنا، لدينا غضب شديد أمام المشاهد غير المحتملة للمجازر، والمجاعات، وضروب الإساءات، لكنّ فقاعة العاطفة الإعلامية لا تتعدى شهرًا

(الأمثل هو ما بين ثلاثة أيام وخمسة عشر يومًا). وهناك، ما عدا أننا لا نرى المشاهد المروعة نفسها مثل الشمال (مثلًا، تم بث عملية "الرصاص المصبوب" [(49)]، التي غابت عن الشاشات الغربية، على الهواء مباشرة ويومًا بعد يوم من طرف مراسلي الجزيرة العاملين في المكان عينه)، توجد ضغينة صبورة ومخفية في الأعماق (على شاكلة ضغينة الثأر)، على أن يجري تفجيرها لأول ذريعةٍ تأتي، سواء أكانت دينية أو غير ذلك. فالغرب ذو النزعة القصيرة الأمد يحلم بالحرب الخاطفة؛ والشرق، الذي يأتي من بعيد ولا يتعجل إلى الفعل بل يترك الأمور تتضح، يُفضّل حرب الاستنزاف. هنا، نتحدث لغة الضربات، وهناك نتحدث لغة المقاومة. من يَضرب ينفجر بالوعيد، ويضرب كالصاعقة ويغزُ في رمشة عين؛ ومن يُضرَب يُغوِّص الخصم في الوحل، وينسلّ إليه، ويستنزفه؛ ما يعني أن الزمن يلعب ضد الغرب، وهو سيّد المجال ورهينة اللحظة.

وبوصفها مُشبعة بالمشهد السريع وبمقطع الفيديو القصير، تُعَد هذه النزعة الآنية (présentisme) لاواقعيةً استراتيجيةً من حيث إنها تطمس الماضي والمستقبل. فبنظرة إلى الأمام، لا تُقيِّم [هذه النزعة الآنية] عواقبَ قراراتها الفورية على المديين المتوسط والطويل، التي تتعارض عمومًا مع الهدف المنشود (يمكن هنا عدّ مرور العراق السنّي تحت سيطرة الشيعة الموالين لإيران بمنزلة نموذج معياري [بردايم])؛ فالنزعة الآنية العاطفية تنزع الأهلية عن الذكاء الاستراتيجي. وبنظرة إلى الوراء، باعتبارها منغلقة في نزعة أخلاقية متفجرة ومشوَّشة، تُبدد [هذه النزعة الآنية] عمدًا ذاكرة الآخرين، إضافةً إلى تبديدها الإذلال الذي أخضعتهم له بنفسها في الماضي. فالمغلوبون لديهم دائمًا ذاكرة أكبر من الغالبين. وتجارة الرقيق ليست فقط حبرًا على ورق بالنسبة إلى أحفاد العبيد، ولا هي "هيئة الناخبين الثانية" [(50)] المزوَّرة بالنسبة إلى الجزائريين. ولا هي لافتة "ممنوع على الكلاب وعلى الصينيين" في مقاطعة شنغهاي الفرنسية [(51)] بالنسبة إلى أحفاد أحفاد العمال الآسيويين في المستعمرات الأوروبية. صحيح أن الشعور بالمهانة "بوصفه محرِّكًا للتاريخ" - الذي جرى التقليل من شأنه على نحو منتظم على الرغم من أنه أكثر تفجرًا من الاستغلال الاقتصادي - مع الضغينة الناجمة عنه، لم يجد مكانه منذ عام 1945 لدى الآمر وصانع القرار الغربي، والذي دفع غاليًا ثمن هذا الازدراء. ولإيجاد عذرٍ له، دعونا نَقُلْ إن العكس كان ليكون ضد الطبيعة. فالجميع يتذكر الصفعات التي تلقّاها ألف مرة أكثر من الصفعات التي وجّهها.

**العائق الخامس: تناثر العامل المُخِل بالنظام**

كان لتدمير الدول الوطنية أو استنزافها تحت وطأة الضربات الساحقة للتدخل الخارجي تأثير عكسي تمثَّل في تناثر مصادر اختلال النظام والبلبلة، والتي أصبحت تتملص أكثر فأكثر من يقظة المركز. وما لا شك فيه، كون

العولمة التقنية - الاقتصادية تفرز كنتيجة غير مباشرة البلقنة السياسية والثقافية للكوكب الأرضي، فهذه مسألة لا يمكن أن تُعزى إلى أي لامبالاة معينة. ذلك أن تعاظم الانتماءات نتيجةً لتجانس الأدوات هي ظاهرة ميكانيكية - حرارية تعمل من تلقاء نفسها، مثل المد والجزر أو الصمام. لكن نسيان أن الدولة هي صاحبة احتكار العنف الشرعي وأن تدميرها يجعل [المتحمسين لـ] الكلاشينكوف غير النظاميين يتكاثرون، وهم المحاورون الذين من المستحيل أو من الصعب الإحاطة بهم، هي مجرد هفوة بشرية فادحة. إن نزع صمام السيادة السياسية تحت وطأة الصواريخ والقوات الخاصة يجعل في نهاية المطاف ما هو إثني وما هو روحاني باطني يطفوان على السطح، وهما الأكثر صعوبة لإسماعهما صوت العقل لأنهما يتحدثان لغة مختلفة تمامًا. ومن دون شك تُفضّل إسرائيل اليوم مواجهة دول أو سلطات قائمة (كما كان الحال في عام 1956 أو 1967 أو 1973) بحروب مباشرة ومنتظمة، وفق قواعد الشرف، عوضًا عن التعامل مع "منظمات غير حكومية" مسلحة ومتنقلة، من دون رقم هاتف. فمن الأفضل أن يكون أمامك، في الضفة الغربية، السلطة الفلسطينية عوضًا عن تنظيم القاعدة؛ وفي غزة، من الأفضل أن تكون أمامك حركة حماس عوضًا عن العشيرة، الناذرة نفسها للمتاجرة بالرهائن؛ وفي سورية، من الأفضل أن يكون أمامك الطاغية الرسمي لكن المحدَّد المكان ("أسد في فلسطين وأرنب في الجولان") [52] عوضًا عن مئات المتعصبين الدينيين المشتتين بين جنبات الطبيعة والمزوّدين بصواريخ أرض - جو. وربما لم تكن تنحية ياسر عرفات ووضع السلطة الفلسطينية موضع السخرية في نظر الفلسطينيين في الشارع حسابًا جيدًا، ولا تجاهُل حركة حماس التي أجبرت عشيرة دُغمش [53] على الطاعة بحزم وشدة، والتي تلجم عادةً عنان متطرفيها.

تتقدم جبهة الجهاد العالمي من خلال المناطق التي تنهار فيها الحكومة المركزية، مثل أفريقيا جنوب الصحراء على وجه الخصوص، ويتحمل الغرب جزءًا من مسؤولية هذا التضعضع. فبعد أن قضى الغرب في الشرقين الأدنى والأوسط، بتحالفٍ مع الوهابية وأموال المملكة العربية السعودية (حيث تُضرب أعناق النساء الزانيات بالسيف في الساحة العامة) [54]، على الحركات القومية التي تنتسب إلى عُروبةٍ عَلمانية وماركسية إلى حد ما، يشكو الآن من الاضطرار إلى التعامل مع من هم بِرتبة ثيوقراطيين. وأيّ سفيه مضلَّل يمكنه دائمًا أن يرى في الأمة الموحَّدة من جديد والخالية من الحدود والجنسيات - مثلما تَوهّمها الباكستاني أبو الأعلى المودودي - مشهدًا عكسيًّا حُلميًّا لاهوتيًّا للحوكمة العالمية لسوق مُوحدة على يد منظمة التجارة العالمية، كما توهّمها الفرنسي باسكال لامي (Pascal Lamy)؛ بمنزلة الجواب بالمثل اللاذع على "المؤسسة العالمية" [55]. فمستوى ما فوق الدولة هو بساط لحُلمَين. وما هو

واضح هو أن خصخصة العنف لا تتفق مع مصلحة الأوصياء المزعومين على السلام العالمي، لا داخل الشبكات الإجرامية العابرة للحدود، ولا خارجها، مع التناثر بين أيد متقلبة لترسانات أسلحة كيميائية وبيولوجية ونووية. ثمة مدعاة قلق هنا لفرانكنشتاين.

خلاصة القول، هل يمكن أن يقال عن الموازنة بين "الأمجاد" الخمسة و"العبوديات" الخمس، ليس لما يملكه الغرب وإنما لكينونته ذاتها التي هي في الآن ذاته أقوى وأضعف مما يعتقده، أنها متوازنة؟ على المستوى الدينامي، من المرجح أنها ليست كذلك. وفي الأمد القصير، يبدو أنها كذلك. ليس لكون القائد المزعوم للحداثة هو على المسار الصحيح، بل هو بعيد من ذلك؛ فالخير الذي يعتقد أنه يُجسّده هو صورة خداعة ما عادت تخدع الناظر إليها إلا على نحو متناقص. لكن، سواء تأسّفنا لذلك أو ابتهجنا به، يبدو، في الوقت الحالي، أن للغرب حبل الامتياز على الآخرين؛ وهو ليس قريبًا، مهما كان جشعًا، من أن يشتري حبلًا آخر ليشنق نفسه به، كما تصوَّر ذلك فلاديمير إيليتش لينين، باستخفاف نوعًا ما، منذ قرن من الزمان[56].

(5) نُشر هذا النص في: Médium, no. 34 (Janvier - Mars 2013).
(6) يجري اشتقاق مفهوم "الاستغراب" (Occidentalisme) عبر إلحاق الزائدة isme إلى الغرب Occident. ومن ثم، يحوي هذا المفهوم حمولةً قدحية مضمَّنة على غرار جميع المفاهيم التي تنتهي بـ isme، وله تقاطعات مع مفهوم "التغريب" (Occidentalisation) الذي يعني تبنّي نمط عيش الغرب وذهنياته ومؤسساته، إلى درجة الانصهار التام والاستلاب، على اعتبار أن "التحديث يقتضي حتميًّا التغريب". ويرتبط الاستغراب باعتباره تيارًا فكريًّا في الأساس بالإمبراطورية الروسية في النصف الأول من القرن التاسع عشر؛ إذ انتشر، على نطاقٍ واسع، الاقتناعُ بدونية روسيا مقابل أوروبا الغربية، ما جعل بعض القياصرة (خصوصًا بطرس الأكبر وكاترين الثانية) والطبقة الحاكمة ينبذون القيم والمؤسسات الروسية للتحول سريعًا وبصورة متوحشة إلى تبنّي قيم الغرب ومؤسساته. (المترجم) (7) كتاب **انحدار الغرب** (*Der Untergang des Abendlandes*)، الذي تُرجم إلى اللغة العربية بعنوان **تدهور الحضارة الغربية**، هو أشهر من نار على علم. ويعرض الكاتب فيه، ربما متأثرًا بما كتبه العلّامة ابن خلدون، نظريةً عن ازدهار الحضارات وسقوطها، وأن ذلك يتم على نحو دوري. ويتوقع أوزوالد شبنغلر (Oswald Spengler) في هذا الكتاب، الذي كتبه قبل الحرب العالمية الأولى وأثناءها، أن انحدار الغرب سوف يقود إلى اندثار الثقافة "الأوروبية - الأميركية"، التي ستبتلعها القوى "الفاوستية" التي أطلقتها هي نفسها (وهي القوى التي تخلت عن قيمها الروحية ومبادئها الأخلاقية وتحالفت مع الشيطان للحصول على الثروة أو الأرباح، وفقًا لأسطورة فاوست عند غوته، وفي مقدمتها القوى التقنية). وقد عاد الاهتمام بهذا الكتاب بقوة في أعقاب نشر كتاب **صدام الحضارات** (*The Clash of Civilizations*) لصامويل هنتنغتون (Samuel Huntington). (المترجم) (8) تشير المانوية (Manichéisme) في العصور القديمة إلى ديانة أسسها الفارسي ماني في القرن الثالث؛ أما في العصور الوسطى، فتشير إلى المفكرين المسيحيين الاثنينيين (النزعة القائلة بوجود جوهرين مختلفين هما المادة والروح). وفي معناها المعاصر، تشير المانوية إلى الموقف التبسيطي لاختزال العالم في تعارض بين الخير والشر. يُحوِّل بذلك المنظور المانوي، الذي يغزو الدين والثقافة والأخلاق والسياسة والأيديولوجيات والعلم، أيَّ تمييز واختلاف إلى تعارض وتضاد، ويُرجع بشكل منهجي تعقيدَ الواقع إلى طرفين حصريين يستبعد أحدهما الآخر ويحصره في صور نمطية. وتُعتبر الولايات المتحدة أكثر من يوصم في عالم اليوم بنهج المانوية في مقاربة العلاقات الإنسانية. (المترجم) (9) يجري عمومًا في اللغة الفرنسية توظيف مصطلح "الغرب" بمدلولين، باستخدام الأحرف الصغيرة أول الكلمة ouest للدلالة على الجهة الجغرافية (الجهة الغربية)، وباستخدام الأحرف الكبيرة [التاجية] أول الكلمة Ouest للدلالة على الكيان الجيوسياسي والاقتصادي والعسكري والثقافي، كذلك تُستَخدم كلمة Occident بالدلالة نفسها. (المترجم) (10) انضمت كل من بلغاريا ورومانيا إلى الاتحاد الأوروبي في عام 2007، قبل أن تلحق بهما كرواتيا في عام 2013 ليصبح عدد أعضاء الاتحاد ثمانية وعشرين بلدًا. (المترجم) (11) في إحالة على الخط السياسي للجنرال شارل ديغول، الذي كان يروم "التميز الفرنسي"، في سياق الحرب الباردة والتنافس بين القوتين العظميين، الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، وبلورة "طريقٍ ثالثٍ" بين الرأسمالية والماركسية. وقد تمثَّل هذا الخط السياسي على سبيل المثال في السعي لخلق قوة ردع فرنسية مستقلة، خصوصًا في المجال النووي، والانسحاب من القيادة العسكرية الموحَّدة لحلف شمال الأطلسي في عام 1966. (المترجم) (12) ولدت "جماعة الدفاع الأوروبية" (CED) في عام 1950 على أساس مشروع لإنشاء جيشٍ أوروبي، مع مؤسسات فوق وطنية موضوعة تحت إشراف قيادة حلف شمال الأطلسي، الموضوعٍ بدوره تحت إشراف الولايات المتحدة. وبعد أن صدّقت على هذه المعاهدة كل من ألمانيا الاتحادية وبلجيكا ولكسمبورغ وهولندا، رُفضت من الجمعية الوطنية الفرنسية في عام 1954. ومن ثم أصبح هذا الفشل يكشف عن عدم قدرة دول أوروبا الغربية على تصميم نظام دفاعٍ مستقل عن الولايات المتحدة، على الرغم من إعادة إحياء فكرة الدفاع الأوروبي في عام 1992 بموجب معاهدة ماستريخت (سياسة العلاقات الخارجية والأمن المشترك)، وتأكيدها في عام 2007 من خلال معاهدة لشبونة، ولكن دائمًا في إطار حلف شمال الأطلسي، أي في إطار التبعية الوطيدة لواشنطن. (المترجم) (13) غزّال الصور المنمَّقة (spin doctor) مستشار في مجال الاتصالات والتسويق السياسي بالنيابة عن شخصية أو هيئة سياسية، يعمل عادة خلال الحملات الانتخابية. (المترجم) (14) كتب الشاعر الفرنسي التقدمي أوجين بوتييه (Eugène Pottier) النشيد الثوري "الأممية" (L'Internationale) خلال قمع "كومونة باريس" في عام 1871. واستُخدمت ترجمته الروسية كنشيدٍ وطني للاتحاد السوفياتي في عام 1917، قبل أن يجري استبدالها في عام 1944 بنشيد السوفيات. كما أن ترجماته العديدة إلى لغات

العالم أصبحت رمزًا للصراعات الاجتماعية والطبقية لليسار ولليسار الراديكالي. (المترجم) (15) "إمبراطورية الوسط" هي تسمية أجنبية للصين، مشتقّة من المفهوم الصيني القديم "تشونغ" (الذي يشير إلى المركز، أو المحور، أو الوسط)، على اعتبار تصوُّر الصين مركزًا للحضارة، ومن ثم مركزًا للعالم. (المترجم) (16) نسبة إلى القديس بولس. (المترجم) (17) الترجمة الحرفية هي متخلف ولكننا فضلنا كلمة ماضوي في وصف هذه الحركات. من المهم أن نتذكر أن الكاتب طرف في سجال يضمه هذا الكتاب وأن هناك من يرد عليه في الكتاب نفسه. (المترجم) (18) ربما يقصد الكاتب تفجيرات العراق التي وقعت في 9 أيلول / سبتمبر 2012، وهي سلسلة من الأعمال التخريبية والتفجيرات العنيفة التي طالت أنحاء متفرقة من العراق، من بينها بغداد والموصل والبصرة وميسان والناصرية وديالى وكركوك وصلاح الدين، وسقط فيها عدد كبير من القتلى والجرحى. (المترجم) (19) "إجماع واشنطن" (Consensus de Washington) مجموعة من التدابير المطبَّقة في بداية ثمانينيات القرن الماضي على الاقتصادات النامية التي كانت تعاني أزمة الديون والركود والتضخم المفرط، بإيعاز من المؤسسات المالية الدولية التي يوجد مقرها في واشنطن (البنك الدولي وصندوق النقد الدولي)، وبدعم من وزارة الخزانة الأميركية. وقد أصبح إجماع واشنطن، في العقد الأخير، يرمز إلى كل التدابير النيوليبرالية المستوحاة من أيديولوجيا "مدرسة شيكاغو" النيوكلاسيكية. (المترجم) (20) "مرسوم كركلا" (édit de Caracalla)، الذي يسمى أيضًا "دستور أنطونينوس" (Constitutio Antoniniana)، هو أحد أشهر القوانين المعروفة في الإمبراطورية الرومانية. وقد منح هذا المرسوم، بتاريخ صدوره، المواطنة الرومانية لجميع الرجال الأحرار في الإمبراطورية ممن لم يكونوا بعدُ مجنّسين (كانت الجنسية الرومانية حينئذ وراثية، وبالنسب والتبني). (المترجم) (21) يتعلق الأمر بمنظورين للهجرة، أحدهما من بلاد المغادَرة والآخر إلى البلدان المستقبلة. ومن ثم، فإن الشخص نفسه هو على حد سواء "مهاجر إلى الخارج" (émigré) بالنسبة إلى بلده الأصلي و"مهاجر وافد" (immigré) بالنسبة إلى البلد المضيف. (المترجم)

(22) Frédéric Martel, *Mainstream. Enquête sur cette culture qui plaît à tout le monde*, coll. Essais (Paris: Flammarion, 2010), p. 464.
(المترجم)

(23) إرفينغ كريستول (Irving Kristol) صحافي وناشر ومثقف أميركي، يجري اعتباره مؤسِّسًا لاتجاه المحافظين الجدد الأميركيين. (المترجم) (24) "الاتجاه السائد" (mainstream) هو الاتجاه الفكري السائد أو "معتقد الأغلبية". ويمكن تطبيق مفهوم الاتجاه السائد على الثقافة الشعبية وعلى ثقافة وسائل الإعلام، كما يمكن تطبيقه على النظريات العلمية وعلى "الصائب سياسيًّا". ويجري استخدام هذا المفهوم في الغالب بحمولات قدحية وتحقيرية من الثقافات الفرعية التي لا ترى في الثقافة السائدة سوى أنها إقصائية، بل إنها فنيًّا وجماليًّا وعلميًّا أدنى مرتبة. (المترجم) (25) تجمع "البيئة المخفية" (underground) الأفرادَ والثقافات على هامش العادات الثقافية لما يسمى "الاتجاه السائد" (mainstream). وغالبًا ما تقترن البيئة المخفية بانتقاد المعايير الاجتماعية والأخلاق ورموز التنظيم الاجتماعي واستهجانها. وليس هذا الاستبعاد عن النظام الحالي دائمًا متعمَّدًا، كما أن اقترانه بالنضال الاجتماعي والسياسي ليس قاعدة عامة. (المترجم) (26) "مهمة داخلية" ("Inside Job") فيلم وثائقي أميركي ألّفه وأنتجه وأخرجه تشارلز فيرغسون (Charles Ferguson) في عام 2010. يُحلّل هذا الفيلم أسباب الأزمة المالية العالمية التي بدأت في عام 2007، وقد حصل على جائزة الأوسكار لأفضل فيلم وثائقي في عام 2011. (المترجم) (27) يعني مصطلح "كواني" (Koinè) في الأصل شكلًا من أشكال اللغة الإغريقية. ويجري، استطرادًا، إطلاقه على التهجئة اللغوية المختلفة المستقلة، المشتركة لسكان منطقة معينة تشكّلت انطلاقًا من مختلف اللهجات المفهومة بينيًّا لجميع الأطراف. (المترجم) (28) تحدّ كل من فانكوفر وفلاديفوستوك (Vladivostok) العالم بشكل ما؛ إذ تُطل فانكوفر، في أقصى غرب كندا، على المحيط الهادئ، وتطل، فلاديفوستوك في أقصى شرق روسيا، على بحر اليابان. (المترجم) (29) بانغلوس (Maître Pangloss) شخصية لفولتير في الرواية الفلسفية **كانديد** (*Candide*)، يسخر فولتير من خلالها من مذهب التفاؤل وفق خطة إلهية (Théodicée) عند الفيلسوف الألماني لايبنتز، ومن "الثرثرات" و"الترهات" الميتافيزيقية التي لا تعالج أبدًا مشاكل الإنسان وعلله، بل ما يعالجها، وفقًا لفولتير، هو العمل فحسب. (المترجم) (30) "الدكتور سترينجلوف، أو: كيف تعلّمت أن أتوقّف عن القلق وأحبّ القنبلة" (Dr Strangelove or: How I Learned to Stop Worrying and Love the Bomb) فيلم كوميدي ساخر لستانلي كوبريك، في عام 1964. تدور أحداث الفيلم خلال الحرب الباردة؛ إذ جرت، في بدايات اندلاع حرب نووية، استشارة الدكتور سترينجلوف، وهو عالم منشقّ يشرح الحلّ الممكن لإنقاذ الجنس البشري: اختيار أفضل العناصر لنقلهم

للبقاء على قيد الحياة تحت الأرض. تقوم فكرة الفيلم على تسليط الضوء - بطريقةٍ ساخرة - على مخاطر وضع القنبلة النووية بين أيدي عسكريين وسياسيين غير مسؤولين، يجري تشبيه المحافظين الجدد بهم. (المترجم) (31) كانت استراتيجية "رشق الشرطة" (Police bombing) في الأصل (في بداية القرن العشرين) استراتيجية للشرطة الاستعمارية لقمع انتفاضات الشعوب المستعمَرة، قبل أن تصبح آلة للحرب. فقد أُسقطت أول قنبلة جوية من طائرة إيطالية على واحة ليبية في عام 1911، ثم جرى تطوير هذه الاستراتيجية في العراق في عشرينيات القرن الماضي، واستخدمتها فرنسا في سورية والمغرب، وكذلك كان شأن جميع القوى الاستعمارية. والتوازي بين ممارسات الشرطة الاستعمارية وممارسات "شرطي العالم" اليوم، خصوصًا من خلال استعمال الطائرات من دون طيار، واضح وجلي. (المترجم) (32) في الميثولوجيا اليونانية، أنتايوس (Antée) ابن الإلهة - الأرض غايا (Gaia). وكانت له خصوصية أنه لا يُقهر تقريبًا أبدًا طالما بقي على اتصال مباشر بالأرض، لأن أمه الأرض تعيد إحياء قواه في كل مرة يلمسها. (المترجم) (33) على خلاف بعض اللغات الأخرى، لا يجري في اللغة الفرنسية استعمال الأحرف الكبيرة (majuscules) سوى في بداية الجمل (باستثناء الأسماء المركّبة، أو أسماء العلم، أو أسماء الجهة، أو بعض الأسماء المتعارف عليها). وحين يجري استعمالها لمفهومٍ معيّن لا يدخل ضمن هذه الفئات، فذلك يُفيد إضفاء طابع من الأهمية والتسامي على الكلمة. والمقصودُ هنا أن رسم مفهوم الديمقراطية (démocratie) بالأحرف الكبيرة (Démocratie) يحمل دلالة "الديمقراطية في المطلق"، ما يطمس خصوصيات الأشكال العديدة للديمقراطية (بالأحرف الصغيرة démocratie) التي يعرضها الكاتب هنا معتبرًا ضمنيًّا أنها إحدى خصائص النظام الديمقراطي ومصادر ثرائه. (المترجم) (34) "التوافقية" (أو "تشارك القوى") (consociative) هي الشكل الذي تتّخذه الأنظمة السياسية الديمقراطية في المجتمعات المنقسمة بشدة، عندما يتم التوصل إلى تقاسم السلطة للعمل المشترك بين النخب خارج منطق الأغلبية وبغضّ النظر عن الاختلافات الدينية أو اللغوية أو العرقية التي قد تكون موجودة بين المجموعات الاجتماعية والثقافية التي تعبّر هذه النخب عن تمثيلها في الحكومة. (المترجم) (35) دافيد غالولا (David Galula) ضابط في الجيش الفرنسي وباحث كان له تأثير كبير في تطوير نظرية حرب مكافحة التمرّد وممارستها. وقد وصف غالولا تجربته الحربية في كتابين، **التهدئة في الجزائر** (*Pacification in Algeria*)، الذي نشرته مؤسسة راند (RAND Corporation) في عام 1963، و**حرب مكافحة التمرد: النظرية والتطبيق** (*Counterinsurgency Warfare: Theory and Practice*) في عام 1964. ويستند غالولا في تحليله إلى تجربته الشخصية في "مكافحة التمرد" في الهند الصينية والجزائر واليونان، ويعطي تصنيفًا للإعدادات المواتية وغير المواتية لحرب ثورية من وجهة نظر كل من القوى الثورية "المتمردة" والقوى الموالية لـ "مكافحة التمرّد". (المترجم) (36) الجيجين (gégène) مصطلح من اللغة العامية العسكرية الفرنسية، وهو اختصار لكلمة "مُولِّد" (générateur)، أي المولّد الكهربائي أو الدينامو الكهربائي اليدوي الذي كان يُستخدَم أساسًا في تشغيل الهواتف في البوادي والقرى. وقد استُخدم "الجيجين" على أيدي المستعمرين والأنظمة الشمولية لتعذيب الناس من طريق ربط الأقطاب الكهربائية لتمرير التيار الكهربائي بين مختلف أجزاء الجسم. (المترجم) (37) الفارس المطوف (Redresseur de torts) يوجب على نفسه إنقاذ ضحايا الظلم أو العنف وتقويم المعوجّ من الأمر. (المترجم) (38) في السنوات التي تلت تحرير فرنسا من النازية، بدأ الحديث عن "أوساط حيّ سان جرمان دي بريه" (milieux germanopratins) المرتبطة بحركة "الوجودية". وحاليًّا، أصبح المصطلح يشير إلى الوسط الثقافي الباريسي الذي يرمز إليه حي سان جرمان دي بريه. (المترجم) (39) حزب حركة الشاي (Tea Party) حركة سياسية في الولايات المتحدة متعددة المشارب، واحتجاجية، وتحررية، وتعارض الدولة الاتحادية وضرائبها. وقد برز الحزب في بداية رئاسة باراك أوباما، في سياق الأزمة الاقتصادية (2008 - 2010) الناجمة عن الأزمة المالية. وتنتقد الحركة على وجه الخصوص الإنفاق الحكومي في ظل إدارة أوباما، سواء منه ذاك الذي يدعم النظام المالي والانتعاش الاقتصادي أو الذي يدعم توفير الحماية الاجتماعية المشتركة على المستوى الاتحادي. ويطالب الحزب باستعادة روح تأسيس الدولة، وهو يستعير في هذا الصدد حرب الاستقلال الأميركية، إذ إن تسميته تشير إلى حادثة حفلة الشاي ببوسطن، وهو الحدث التاريخي الذي شكّل بداية الثورة الأميركية ضد الملكية البريطانية في القرن الثامن عشر، من خلال حركة احتجاج سياسي قام بها مجموعة من أنصار الحرية في بوسطن ضد سياسات الضرائب للحكومة البريطانية وشركة الهند الشرقية التي كانت تتحكم بجميع مستوردات الشاي إلى المستعمرات. (المترجم) (40) مفهوم "اللاشرعوية" (illégalisme) صاغه ميشيل فوكو في وصفه التسامح المتباين إزاء الممارسات غير القانونية وفقًا للفئات الاجتماعية. وتعتبر مقاربة اللاشرعوية أن الأعمال غير الشرعية يمكن أن تكون وسيلة تؤدي إلى الثورة (كما كانت تُمارَس مثلًا عمليات السطو والسرقة على الأثرياء وأصحابِ الأملاك، وأرباب العمل، والسياسيين).

واستطرادًا، يشير المصطلح إلى عقيدة سياسية تعتبر أن الأعمال غير المشروعة هي وسيلة عادلة لتحقيق أهداف يجري اعتبارها مشروعة. (المترجم) (41) بيان القدر (Manifest Destiny) أيديولوجيا الاعتقاد بأن الولايات المتحدة مُكلَّفة من السماء بالتوسع في قارة أميركا الشمالية وبنشر الديمقراطية والحضارة دائمًا أبعد إلى الغرب. (المترجم) (42) "المحايثة" (immanence) مفهوم فلسفي يشير إلى صفة الشيء الذي مبدؤه كامن فيه في حد ذاته، بمعنى حضور "الشيء في ذاته"، وهي بذلك تتنافى، كما عند فريدريش نيتشه، مع فكرة الحقيقة المتسامية الخفية، أو فكرة نهاية التاريخ كحقيقة متسامية سرمدية. (المترجم) (43) يتقاطع جزئيًّا التمييز بين المحايثة والتسامي (transcendance) مع التمييز الذي قام به الفلاسفة الرواقيون بين ما يعتمد علينا وما لا يعتمد علينا. (المترجم) (44) متحف كرنافاليه (Carnavalet) متحف بلدي باريسي مخصص لتاريخ باريس منذ جذورها الأولى حتى اليوم. (المترجم) (45) الهيلوتس (Ilotes) هي طبقة الأقنان في إسبرطة القديمة، وقد أصبحت لاحقًا تحمل دلالات الأشخاص المستعبدين والمحصورين في الفقر والجهل. والمتحدرون (métèques) في المدن الإغريقية القديمة هم في وضع وسيط بين المواطن والأجنبي. ويقصد الكاتب النزعة المتزايدة إلى إغناء الجيوش الغربية بهذه الفئات الاجتماعية الهجينة في محلّ مواطنيها "الأصليين". (المترجم) (46) يرمز جُلْيات (Goliath)، خصم داود، في المخيلة الغربية إلى الشدة والقوة والبطش، إذ جاء في وصف الكتاب المقدس له أن طوله كان يبلغ ستة أذرع وشبرًا (نحو 290 سنتمترًا!)، ويأتي هذا التشبيه كناية عن تحول العقيدة العسكرية الغربية وفقدانها شكيمتها. (المترجم) (47) يقصد الكاتب هنا بالطبع لوبي "الجماعة الأهلية الصهيونية" داخل الولايات المتحدة (AIPAC وJINSA، وسواهما)؛ وقد سقط منه أكثر من "نصف مليار" في تعداد المسلمين في العالم. (المترجم) (48) جرى تقليص ولاية رئيس الجمهورية الفرنسية ابتداء من عام 2002 من مدة سبع سنوات (septennat) إلى مدة خمس سنوات (quinquennat). (المترجم) (49) عملية "الرصاص المصبوب" هي التسمية التي أطلقها الإسرائيليون على عدوانهم على غزة بين كانون الأول / ديسمبر 2008 وكانون الثاني / يناير 2009، وأطلقت عليها المقاومة الفلسطينية "معركة الفرقان". (المترجم) (50) تحت نير الاستعمار، أنشئت الجمعية الجزائرية بموجب قانون 20 أيلول / سبتمبر 1947. وقد جرى تنظيم هذه الجمعية بشكل جائر من خلال هيئتين انتخابيتين: "هيئة الناخبين الأولى" (premier collège) المخصصة للمواطنين الفرنسيين، الذين كانوا يمثّلون 900 ألف أوروبي، أي 10 في المئة من السكان، في حين كانت "هيئة الناخبين الثانية" (deuxième collège) مخصصة للسكان المحليين، الذين كانوا يمثّلون 9 ملايين شخص، أي 90 في المئة من السكان. وكانت كل هيئة تنتخب العدد نفسه من الممثّلين، 60 لكل منهما، أي ما مجموعه 120 نائبًا. (المترجم) (51) "مقاطعة شنغهاي الفرنسية" هي منطقة صينية كانت تحت الإدارة الفرنسية من عام 1849 إلى عام 1946 في مدينة شنغهاي. ويتذكّر الصينيون هذه الفترة بكثير من المرارة، إذ كانت الدعاية الماوية الصينية قد أشاعت بشكل واسع لوحةً كُتب عليها "ممنوع على الكلاب وعلى الصينيين"، قد تكون عُلّقت على مدخل حديقة في شنغهاي خلال هذه الفترة. (المترجم) (52) وقع لبس عند الكاتب، إذ إن الشعار المعروف عربيًّا منذ عهد حافظ الأسد هو "أسد في لبنان، فأر في الجولان"، خلال فترة استئساد نظام الأسد على اللبنانيين وعلى الفلسطينيين في لبنان وعجزه عن إطلاق رصاصةٍ واحدة أو استرداد شبرٍ واحد من أرض الجولان المحتلة. وعلى المنوال نفسه، صيغت في أعقاب الثورة السورية شعارات ضدّ نظام بشّار الأسد: "أسد في حمص، أرنب في الجولان"، "أسد في حماة، أرنب في الجولان"، "أسد في درعا، أرنب في الجولان"، وغير ذلك من الشعارات. (المترجم) (53) "دار دُغمش" عائلة فلسطينية متنفذة في قطاع غزة، كانت تتوفر على ميليشيات مسلحة وإمكانات تسلحية وتدريبية عالية، وكان نشاطها واسعًا في القطاع قبل وصول حركة حماس إلى سدة الحكم في الانتخابات الفلسطينية عام 2006 ثم سيطرتها على مقار الأجهزة في غزة في عام 2007؛ وقد قام عدد من أفراد دار دُغمش بخطف الصحافي البريطاني آلن جونستون (Alan Johnston) مراسل هيئة الإذاعة البريطانية في آذار / مارس 2007، واحتُجز رهينة لمدة أربعة أشهر قبل إطلاقه تحت الضغط العسكري للقوة التنفيذية لحركة حماس. (المترجم) (54) على خلاف ما يؤكّده ريجيس دوبريه هنا، إن كان النظام الجزائي السعودي يتضمّن بعض الحدود المعيارية المستمدّة من أحكام الشريعة الإسلامية، فإنّ القضاء السعودي قد فرض شروطًا قاسية لتطبيقها، مما جعل حكم الرجم لم يُنفّذ في السعودية منذ عشرات السنوات، وإنما أغلب العقوبات هي الحبس والجلد. وبالإضافة إلى ذلك، أدخلت السعودية في نيسان / أبريل 2020 بعض التعديلات على نظام العدالة الجنائية تضمنت إنهاء الجَلد لجرائم التعزير. يُنظر: هيومن رايتس ووتش، "السعودية: قانون العقوبات المرتقب يجب أن يحمي الحقوق"، شوهد في 15 / 9 / 2023، في: https://rb.gy/o34ot (المترجم) (55) "المؤسسة العالمية" (World Enterprise) هي شركة متعددة الجنسيات "وهمية" مقرها في الولايات المتحدة، طوّرها برنامج تلفزيوني

فرنسي (Les Guignols de l’info) للسخرية من آثار العولمة. وتوحي هذه الصورة الكاريكاتورية للعولمة باستئثار شركة احتكارية واحدة بالاقتصاد العالمي، في انتهاك قواعد المنافسة وحسن سيرها، والتي تشكّل أساس العقيدة الليبرالية. وتستفرد هذه المؤسسة العالمية بسلطة وتأثير قويين يجعلانها تملي إرادتها على قادة الشركات ورؤساء الدول الأخرى، فضلًا عن فرض تماثل اجتماعي وأحادية ثقافية على نطاق واسع على المستوى العالمي. (المترجم) (56) يُحيل الكاتب هنا على مقولة تُنسب إلى القائد البلشفي لثورة أكتوبر فلاديمير إيليتش لينين: "سوف يبيعنا الرأسماليون الحبل الذي سنشنقهم به". (المترجم)

# الغرب: ذاكرة في حالة دفاع ...... رينو جيرار

عزيزي ريجيس،

في إحدى الليالي، منذ ما يزيد على عشر سنوات، وجدت نفسي في مخيم أدغال ناءٍ في أعماق دلتا النيجر الشاسعة، وأنا أشرب جعةً صحبة مهندس نفط عجوز فلبيني الأصل. ولمّا كان مقيمًا بسنغافورة منذ ستينيات القرن الماضي، فقد كان هذا المهندس يقضي إقامات مستمرة لمدة ثمانية أسابيع في المواقع النفطية في نيجيريا، تتخللها عطل بالمدة نفسها يمضيها في موطنه. ولمّا كان يحدثني أنه قد كان لنيجيريا، في أواخر الخمسينيات في زمن الاستقلالات، مستوى معيشي متوسط أعلى من المستوى المعيشي المتوسط في سنغافورة، فقد سألته كيف أمكن هذا البلد الأفريقي الشاسع، على الرغم من موارده الطبيعية التي لا تُعَد ولا تحصى، أن يراكم مثل هذا التخلف في التنمية مقارنة بالجزيرة الآسيوية الصغيرة. [حينذاك] أجابني بلكنته الإنكليزية المبتهجة أن السبب الرئيس في هذا الاختلاف هو سيادة القانون (Rule of Law). ولم أنس هذا الدرس الذي لقنني إياه منذ ذاك الحين.

إلى قائمتك بعوامل نجاح الغرب الخمسة، سوف أضيفُ إذًا عاملًا سادسًا، يبدو لي الأهم من بينها جميعًا: سيادة حكم القانون. فحيثما لم تصل روما - أو روحها - لا نجد القانون. وإذا أردتُ [مثلًا] مضاعفة مساحة المعيشة في بيتي، فالسؤال الأول الذي أطرحه على نفسي، في الغرب، هو: "هل لدي الحق في ذلك؟". أما في روسيا والصين، فسوف يكون هذا السؤال: "هل سيسمح لي بذلك الأمير الأحمر الذي هو في مرتبة فوقي؟".

لماذا تودع الأوليغارشية الروسية ثروتها في الغرب؟ ولماذا الشيء الأكثر الذي يرغب فيه المليارديرات الجدد الصينيون هو جواز سفر غربي (أوروبي أو أميركي أو أسترالي)؟ لأن كل هؤلاء المقاولين الحاذقين ليست لديهم أدنى ثقة بسلطات بلدانهم. إنهم يُقدِّرون أن هذه يمكنها الاستيلاء على ممتلكاتهم أو على حريتهم، لأي نزوةٍ من قيصر أو من مكتب سياسي. القانون ينطق بالحق في الغرب، والزعيم يفرض قانونه في الشرق.

بطبيعة الحال، تسمى الابنة الأولى لسيادة القانون الحرية. وكلمة الحرية الجميلة هذه لا تتردد كثيرًا بريشتك، عزيزي ريجيس، عندما تُوصّف الغرب. فباقترانها بالثورة التكنولوجية الرقمية، فإن صديقتنا القديمة الحرية هي بصدد إنجاب نوعٍ جديد من الاقتصاد في الغرب، "الاقتصاد التعاوني"، الذي لا يُعَد

استخدامُ َالنقل بالمعية [57] سوى مثاله الأشهر. والجمعية غير الربحية (OuiShare) التي جرى تأسيسها في كانون الثاني / يناير 2012 في باريس، هي حركة تطمح إلى إحداث ثورة في سلوكنا الاجتماعي. ولا تقتصر في ذلك على تشجيع الاستهلاك التعاوني؛ أي استخدام السيارات بالمعية أو جمعيات الحفاظ على الزراعة الفلاحية التي تضع مجموعة من المستهلكين الذين يعيشون في الحي نفسه على اتصال مباشر وأسبوعي مع مزرعة، مع الدفع مُقدمًا حصاد موسمٍ كامل (AMAP). كما أنها تعزز أنماط الحياة التعاونية مثل "العمل المشترك" (coworking)، والتمويل التعاوني مثل "التمويل الجماعي" (crowdfunding)، والإنتاج الإسهامي ("مختبرات التصنيع" الشهيرة) [58]، والثقافة الحرة ("البرمجيات الحرة"، على سبيل المثال).

عزيزي ريجيس، قد جعلتك مقاربتك التشكيكية حيال المجتمع الليبرالي - الذي هو نتيجة لإفراط الليبرالية الاقتصادية في الماضي والحاضر - تنسى القوة المذهلة للحرية الإنسانية عندما يتعلق الأمر بإصلاح مجتمعٍ لم يعد يرضي فاعليه. ففي الغرب، الحريةُ، وهي البنت البكر لسيادة القانون، هي بطبيعة الحال على العكس تمامًا من الفوضى أو قانون الغاب. وقد دفع الغرب بعيدًا، بعيدًا جدًا، بلامعقولية المجتمع الاستهلاكي. لكنه كان أيضًا قادرًا على إنتاج ترياقه، وهو هذا المفهوم الجديد للاقتصاد التعاوني، الذي مبدؤه هو نفسه مبدأ تلك الطائفة اليهودية الصغيرة التي مضت منذ ألفي سنة لغزو الإمبراطورية الرومانية. هذا المبدأ هو بالطبع مبدأ المشاركة. وفي الحين ذاته الذي بدا فيه الغربيون يجففون جذورهم المسيحية، ها هم يُحيون من دون أن يدركوا قيم السيد المسيح، كما لو كانوا مدفوعين بلاوعيٍ جماعي لا يمكن كبحه!

أنت تعتقد أن إنكار التضحية يميز العالم الغربي. صحيح أن فرنسا الرسمية قد أحيت موت عشرةٍ من جنود القوات البحرية الفرنسية في كمين في أفغانستان في صيف 2008 كأنها مأساة عظيمة، في حين أنه كان يُقتَل في يوم واحد فقط من الهجوم المضاد في صيف 1914 ألف مرة أكثر من الشباب الفرنسيين. لكن على عكس ما يبدو أنك تعتقد، لا يزال يوجد في الغرب تبجيل شديد للتضحية الفردية. فالسباق الفردي لفاندي غلوب [59] هو اختراع غربي! وهو بالنسبة إلى البحارة قاسٍ جدًّا، كما هي سباقات الماراثون الحضرية بالنسبة إلى جمهور أوسع بكثير.

صحيح أن الغرب أصبح منيعًا في وجه التضحيات الجماعية، لكن هنا مصطلح "الجماعي" هو ما يجري رفضه، وليس مصطلح التضحية. إن الغربيين لم يعودوا "مدجّنين" للذهاب إلى المذبح مثل الأغنام. فهل ينبغي علينا أن نتأسف لذلك؟

يبدو أنك تعتقد أن الجهد الجماعي قد أضحى يجري تحقيره في الغرب. وهذا أمر، كما أعتقد، من المبكّر جدًّا الحكم عليه. ذلك أن ما هو جماعي هو تحديدًا بصدد إعادة الصوغ في الغرب على يد النخبة الشابة لحركات الاقتصاد التعاوني. وإن هؤلاء الشبان والشابات في الغرب مترابطون بتشبيكٍ فائق؛ وهذا لا يجعلهم على الرغم من ذلك غير مثقفين. فخلافًا للمظاهر، لم يقتل العصر الرقمي ثقافة الكتاب؛ لقد جعل ببساطة الوصول إليها أيسر. فقد ابتدع الغرب تباعًا سيادة القانون (روما)، والحرية (الثورة الفرنسية)، وشبكة الإنترنت (الجامعات الأميركية)؛ وأمام أعيننا المفتونة، ربما هو اليوم بصدد خلط هذه المكوّنات الثلاثة القوية للحضارة ليستهل تحديثه العظيم!

**العمليات الخارجية**

سألتني عزيزي ريجيس عن شعوري بشأن "العمليات الخارجية". مما لا يمكن إنكاره أن الغرب ما عاد يسود على أنحاء العالم، كما كان شأنه في عام 1900 إبان "تمرد الملاكمين" [(60)]، وهو التدخل العسكري لـ "مسرح الأمم" في الصين، من أجل إخماد تمرد قومي معادٍ للأفكار والمنتجات الآتية من الخارج. في ذلك الوقت، كان "مسرح الأمم" يتألف من ثماني أمم ذات قوة متناظرة، إن لم تكن متساوية: ألمانيا، وإنكلترا، والنمسا - هنغاريا، والولايات المتحدة، وفرنسا، وإيطاليا، واليابان، وروسيا. واليوم، استُبدل "مسرح الأمم" بمصطلح "المجتمع الدولي"، وهو مفهوم وُلد في وقت مبكر في تسعينيات القرن الماضي، في أعقاب انهيار الاتحاد السوفياتي. وفي إطار هذا "المجتمع"، تمارس الولايات المتحدة شكلًا من أشكال الهيمنة الناعمة، وهي التي تفوق ميزانيتها العسكرية عشرين مرة الميزانية العسكرية للقوى الأوروبية. وخلال الحرب الأولى ضد العراق في كانون الثاني / يناير 1991، وقف العالم بأسره وراء أميركا. وقد أدخل الرئيس جورج بوش الأب مفهوم "النظام العالمي الجديد"؛ وهو يتميز باحترام القانون الدولي وميثاق الأمم المتحدة (الذي انتهكه العراق من خلال غزوه الكويت)، وكذلك بسيادة الديمقراطية التمثيلية بوصفها نموذجًا للنظام السياسي، وسيادة اقتصاد السوق بوصفه نموذجًا للنظام الاقتصادي. ومنذ ذلك الحين، تضاءل كثيرًا نفوذ الغرب الأميركي. فقد أضحت أراضٍ شاسعة في وضع تمردٍ أيديولوجي ضده، إن لم يكن تمردًا عسكريًّا: دارُ الإسلام، العالَمان الصيني والروسي، وحتى جزء من أميركا اللاتينية ظفرت به "الثورة البوليفارية". فما الذي حدث؟ مما لا ريب فيه أن الرئيس الثالث والأربعين للولايات المتحدة جورج بوش الابن قد دمر، عن غير قصد، الأسس الهشة للنظام العالمي الجديد الذي حاول تشييدَه والدُه جورج بوش الأب، الرئيس الحادي والأربعون للولايات المتحدة. وقد رفع رفضُ الولايات المتحدة في آذار / مارس 2003 عرض خطتها لغزو العراق أمام مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة واكتشافُ الفظائع الوحشية لسجن أبو

غريب قناعَ النفاق عن السياسة الخارجية الأميركية. وبدأت فجأة القوة العظمى، التي وصفت نفسها طوال تسعينيات القرن الماضي باعتبارها مثالًا يُحتذى للاحترام الفاضل للقانون الدولي وحقوق الإنسان، في اغتصاب هذا القانون وتلك الحقوق.

بيد أنه، وبفضل "القوة الناعمة" (قوة التأثير غير المباشر، غير القسرية، الناتجة من النفوذ الثقافي، كما وصفها في عام 1990 الأستاذ الأميركي جوزف ناي)، يحافظ الغرب على إشعاعه على الكوكب الأرضي، ويظل، شئنا ذلك أم أبينا، المرجع في ما يخص الحوكمة. الحقيقة أن الثورة الرقمية قد زادت من نفوذ القوة الناعمة. وفي مقابل ذلك، وبسبب سوء تصميمها أو سوء تنفيذها - أو كليهما - ساهمت العمليات الخارجية الغربية سلبيًّا، على مدى ربع قرن، في تأثير الغرب في بقية الكوكب الأرضي. وفي تأرجح غريب للتاريخ، تكوَّن لدينا الانطباع بأن كل ما كان الغرب يربحه بفضل قوته الناعمة، يسعى جاهدًا لخسارته بالاستخدام المفرط للمقاتلات القاذفة. ففي أعقاب سقوط جدار برلين (تشرين الثاني / نوفمبر 1989)، الذي كان يعني نهاية الحرب الباردة والرعب النووي، بدأ الغرب - الذي رُفع عنه فجأة الحرج وصار ناسيًا إخفاقاته الماضية في الهند الصينية وفي أماكن أخرى - في الرغبة في التدخل في كل مكان لتعزيز الديمقراطية والعدالة واحترام حقوق الإنسان. مع ذلك، من بين القادة الغربيين الرئيسيين، فقد سجّل أحدهم تحفّظه على نحو واضح.

فخلال ولايتيه الانتخابيتين (1981 - 1988 و1988 - 1995)، ظهر الرئيس [الفرنسي] فرانسوا ميتران متشككًا إلى حد ما في ما يخص "حق التدخل"؛ وهو تعبير صاغه الفيلسوف ريفيل (Jean - François Revel) في عام 1979، ثم جرى التنظير له في الثمانينيات على يد أحد مؤسسي منظمة أطباء بلا حدود، برنار كوشنير، وأستاذ القانون ماريو بيتاتي (Mario Bettati). فقد كان ميتران ينظر إلى العالم بأسره، لكنه كان دبلوماسيًّا من أتباع "السياسة الواقعية" (Realpolitik) الكلاسيكية. وكان يمنح مقابلات لناشطين من "اليسار الأميركي"، ولمدافعين عن التدخل "الإنساني" مثل برنار كوشنير وبرنار هنري ليفي، لكنه كان يعهد بتنفيذ سياسته إلى واقعيين مثل كلود شيسون، أو رولان دوما، أو هوبير فيدرين.

وكانت حيطة ميتران وحذره مُستلهمين من المدرسة القديمة لرجال القانون الدوليين الفرنسيين. ففي عام 1910، وتعليقًا على ما كان يسمى حينئذ "التدخلات الإنسانية"، كتب روجييه (Antoine Rougier) في **المجلة العامة للقانون الدولي العام** (*Revue générale de droit international public*) هذه الكلمات النبوئية: "في كل مرة تتدخل فيها قوة في مجال اختصاص قوة [أخرى]، لن تقوم أبدًا إلا بمعارضة تصوُّرها للعدالة وللخير الاجتماعي بتصوّر هذه الأخيرة، مع فرض

عقوبات عليها إذا لزم الأمر بالقوة... ومن ثم، يظهر التدخل الإنساني كوسيلة بارعة لاستهلال قضم استقلال دولة شيئًا فشيئًا، لجعلها تُذعن نحو نصف السيادة تدريجيًّا".

ومنذ عشرين عامًا، استحضرت أميركا اعتبارات إنسانية في كل مرة تدخلت فيها عسكريًّا (مع دعم حلفائها الفرنسيين والبريطانيين أو من دونه). وكان الاستثناء الوحيد هو حربها الأولى على أفغانستان، وقد بدأت في 7 تشرين الأول / أكتوبر 2001، وكان هدفها المعلن هو تفكيك معسكرات تدريب تنظيم القاعدة والتي كانت حركة طالبان قد سمحت لها بالاستقرار حول مدن جلال آباد وكابول وقندهار. وفي أعقاب اندحار حركة طالبان وشركائها المقاتلين الإسلاميين العرب الأمميين في تشرين الثاني / نوفمبر، شرعت أميركا وحلفاؤها في حلف شمال الأطلسي في مشروع "إنساني" كبير في أفغانستان. وجرى إقرار هذه المرحلة الثانية في مؤتمر بون (5 كانون الأول / ديسمبر 2001) الذي وعد "بإعادة بناء البلاد، وإرساء تحوّل ديمقراطي فيها، وتطويرها". وأوكلت هذه المهمة إلى حلف شمال الأطلسي، الذي سوف يقيم "فرق إعادة إعمار المحافظات" (Provincial Reconstruction Teams) في كل مكان. ولن تُستأنف الحرب حقًّا إلا في عام 2005، وذلك بسبب الأخطاء الغربية المؤسفة ذات التداعيات الشنيعة التي ستوظفها قوات طالبان، التي ستستعيد عافيتها في ملاذها الباكستاني. وبعد أكثر من عشر سنوات على [مؤتمر] بون، بدت معاينة الوضع مفجعة: لقد أضحى "التحول الديمقراطي" حلمًا، وجنحت التنمية نحو الفساد، وتجارة الأفيون، وانعدام الأمن المعمَّم. وتوقع معظم المراقبين أنه إذا انسحبت قوات حلف شمال الأطلسي كليةً بحلول نهاية عام 2014، فإن انتكاسة كابول [وعودتها] إلى أيدي طالبان لن تستغرق أكثر من بضعة أشهر [(61)].

إن مشكلة آلية روجييه التي تقود إلى "نصف السيادة" هي أن تحقيق هذا لا يجري دائمًا، في الأمدَين المتوسط أو البعيد، لمصلحة القوة المتدخلة. وما لا شك فيه أن أفغانستان في عهد كرزاي اختُزلت إلى "نصف السيادة". لكن لمصلحة مَنْ سيكون بعد خمس سنوات؟ على الأرجح جدًّا أن يكون ذلك لمصلحة باكستان التي قد تكون إسلامية على نحو أشد راديكالية مما هي عليه اليوم.

وفي عام 2004، كان الرئيس جورج بوش قد وعد بأن العراق المحتل سيكون نقطة انطلاق لتشييد "الشرق الأوسط الديمقراطي الكبير". لكن الحلم الكبير للمحافظين الجدد تحطم على صخرة الفشل. والآن وقد رحلت عنه القوات الأميركية، يرى العراق سيادته تتأكّل يومًا بعد يوم... على يد "الخلافة" الجديدة للسنّة المتطرفين وعلى يد إيران.

لم تثمر التدخلات العسكرية الغربية ضد الصرب في البوسنة (آب / أغسطس 1995) وفي كوسوفو (آذار / مارس 1999) إنتاجًا عكسيًا مماثلًا. فصربيا هي اليوم دولة موالية للغرب علانية، وهي عضو في "الشراكة من أجل السلام" لحلف شمال الأطلسي، وهي مرشّحة رسميًّا لعضوية الاتحاد الأوروبي. فقد وضع الأميركيون والبريطانيون والفرنسيون من خلال تدخّلهم حدًّا للمجازر. لكنهم لم يُبقوا في المكان عينه على مؤسسات تعمل، ولا على مستقبل أكيد للاستقرار السياسي. فبعد أن قبلوا، تحت ضغط ألمانيا، رؤية يوغسلافيا تيتو تتفكك في عام 1991، عادوا عقب ذلك لينشطوا بصورة غريبة لجعل البوسنة دولةً موحَّدة. غير أن هذه ليست سوى يوغسلافيا مصغّرة، مأهولةً من المسلمين والصرب والكروات الذين يمقتون بعضهم بعضًا على نحو ودّي. وبعد تسعة عشر عامًا من اتفاقات دايتون للسلام، لا يزال البوسنيون على درجة الانقسام نفسها. فلا ينظر الصرب إلا إلى ناحية بلغراد، ولا ينظر الكروات إلا إلى ناحية زغرب، والمسلمون هم وحدهم من يرون سراييفو عاصمتهم الشرعية. وتعيش هذه الأمم الثلاث حياتها منفصلةً تمامًا. والدستور البوسني، الذي صاغه الغرب، هو الأشد تكلّفًا وتعقّدًا على وجه هذه البسيطة، وهو لا يعمل.

لم تعد كوسوفو أرضًا متعددة الأعراق، لكنها تعيش في سلام نسبي، لا تكدره سوى الجريمة المنظمة. وعاطفيًّا، لا يتقبل الصرب إلى اليوم أن القوى الغربية قد انتزعت من أيديهم مقاطعة كانت، في القرن الرابع عشر، مهد كنيستهم الأرثوذكسية. لكن من الناحية الاقتصادية، هذا الانفصال هو بَرَكة بالنسبة إلى صربيا، التي لم يعد عليها دفع نفقات الصحة والتعليم لساكنةٍ ألبانية كانت دائمًا معاديةً لها. فالاستقلال هو الحل المعقول لكلا الطرفين، حالما توجد وسيلة لحماية الأديرة والكنائس الأرثوذكسية القروسطية.

لم تعد كوسوفو، إذًا، وحدها لغزًا جيوسياسيًّا محيّرًا رئيسًا. وفي مقابل ذلك، أفلح تدخُّل حلف شمال الأطلسي في ربيع 1999 لمصلحة "جيش تحرير كوسوفو" (جيش الانفصاليين الألبان لتحرير كوسوفو) في إحياء حركة كانت جدّ قوية قبل الحرب العالمية الأولى: التحريرية الوحدوية [(62)] الألبانية في البلقان. ومقدونيا اليوم، وهي البلد الذي أخذته واشنطن تحت جناحها منذ عام 1992، هي ضحية تمرد جنيني كامن لأقليتها الألبانية القوية المقيمة في غرب البلاد، حول مدينة تيتوفو (Tetovo). فإذا أفلحت الحوادث المتوالية في التحول إلى صراع انفصالي صريح، كيف ستكون ردة فعل الولايات المتحدة؟

في ربيع عام 2011 وصَيْفه، جرى التدخل الغربي في ليبيا في ظل حتمية "حماية الأهالي المدنيين". وسيكون من المثير للاهتمام أن نطلب من أهالي مدينة سرت رأيهم في هذا التدخل. ولأن "المجلس الوطني الانتقالي" لم يفلح في ضمان الحد الأدنى من النظام والتماسك لهذا البلد، وعلى اعتبار أن

عائدات الثروات النفطية أصبحت أقل وأضحت موزعة توزيعًا أشد سوءًا مما كانت عليه في أيام دكتاتورية القذافي، فإن الفرنسيين لا يسعهم سوى الترحيب بالمبادرة التي اتخذها الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي، والتي أقنعه بها المثقف برنار هنري ليفي. وليست الأخبار الواردة من طرابلس وبنغازي غير سارة فحسب، وإنما قد أدى انتشار الأسلحة الناجم عن التدخل الغربي إلى فوضى كبيرة في مالي. وخلال محنتها تحت ظل الراية السوداء لتنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي، هل شعرت الساكنة المدنية في تمبكتو بالامتنان تجاه التدخل الغربي ضد القذافي؟ وهل أحست أنها "محمية"؟ هذا أمر مشكوك فيه...

كانت التدخلات "الإنسانية" في أرض الإسلام - أو هي بصدد أن تصبح - فشلًا ذريعًا. والحصيلة أفضل بخصوص البلقان. بيد أنه يبدو واضحًا، في هذه الحالة الأخيرة، أن العمل الدبلوماسي المسبق كان يمكن أن يكون أفضل بكثير. فلم يكن يَلزم قط فرنسا وإنكلترا والولايات المتحدة قبول أن تنفجر يوغسلافيا، ولا حتى عندما انحاز حزب الاتحاد الاجتماعي المسيحي (CSU) البافاري - في زمن الدعم السياسي اللازم للمستشار هلموت كول - إلى الحركات الانفصالية السلوفينية والكرواتية ودعَمَها. فمنطقة البلقان بأكملها ستكون أفضل حالًا اليوم لو أن الدبلوماسيات الأوروبية قد عرفت، في أواخر ثمانينيات القرن الماضي، كيف تعزز التماسك اليوغسلافي من أجل إدخال وطن تيتو لاحقًا في الاتحاد الأوروبي.

**"مسؤولية عن الحماية" عجيبة**

في الواقع، الإشكال الكبير في العمليات الخارجية للغرب هو أن قادتها ظهروا بمظهر العاجزين عن الرؤية إلى ما وراء يوم واحد!

ففي جلسة مجلس الأمن في 17 آذار / مارس 2011، استحضرت فرنسا وحليفتاها بريطانيا والولايات المتحدة "مسؤوليتهم لحماية" الساكنة المدنية الليبية في بنغازي، من أجل الحصول على رخصة التدخل عسكريًّا ضد نظام القذافي. وقد لزم الأمر أكثر من خمسة أشهر لإسقاط طرابلس في أيدي المتمردين، ثم قام نيكولا ساركوزي وديفيد كاميرون، في 15 أيلول / سبتمبر 2011، برحلة خاطفة إلى بنغازي نُقلت تلفزيونيًّا كما ينبغي، لتلقّي شكر حشدٍ صغير من المدنيين متجمعين على الكورنيش. وتحت أشعة الشمس، وتحت الهتافات والزغاريد، كان مستقبل ليبيا، المحررة من الدكتاتورية، يبدو مشرقًا بقدر إشراق وجه القائدَين الأوروبيين الظافرين.

وفي 8 حزيران / يونيو 2013، ذهب حشد من سكان بنغازي يحتجون سلميًّا أمام مقر ميليشيا تسمى "لواء الدرع" [درع ليبيا]، مطالبين بتفكيكها. فاستُقبلوا برشقات نارية كانت حصيلتها 30 قتيلًا وفقًا لقناة "بي بي سي". مَن إذًا من شأنه حماية أرباب الأسر الشرفاء في برقة من عنف الكتائب

وتعسُّفها؟ لا أحد. ولم يستغرق الأمر أكثر من عامين لكي يدرك الغربيون - من دون الاعتراف بذلك علنًا بالطبع - أن تدخُّلهم العسكري قد أحلّ محل دكتاتوريةٍ موالية للغرب، كانت تعمل جيدًا إلى حد ما، فوضى عارمة معادية للغرب.

بالنسبة إلى السكان المحليين، كان الجانب السلبي في "مسؤولية الحماية" (وهو التعبير الذي حل مؤخرًا محل "حق التدخل" في التسعينيات) هو أن القوى الغربية لا تمارسها إلا على نحو متقطع؛ تبعًا لدرجة صعوبة المهمة. ففي البداية، نبتهج بتحرير الفتيات الأفغانيات من هيمنة طالبان "البرابرة"؛ وفي اليوم التالي، نحزم أسلحتنا وأمتعتنا من دون سابق إنذار. وهذا هو بالضبط ما قام به الجيش الفرنسي في وادي سوروبي [قرب كابول]. فبين عامي 2007 و2012، لم يفتر الجيش أمام الصحافيين عن عرض الإنجازات الملموسة لـ "مهمته الحضارية" في أفغانستان (المدارس، والمستوصفات، والطرق، وقنوات الري، ومراكز الاقتراع). [لكنه] لم ينظِّم بالطبع أي رحلة منظمة للصحافة في عام 2014 لإظهار أنه فور مغادرته، لم يتبقّ أي شيء من جهده. وقد اتُّخذ قرار الحكومة الفرنسية بنشر جيشها في وديان هندوكوش من دون الأخذ في الاعتبار طبيعة الأرض، أو التاريخ، أو طبيعة الأهالي الذين يعيشون في حالة حرب أهلية. فلم يكن هذا القرار غير نتيجة لطلب مفاوضةٍ مع الحكومة الأميركية وثمرة لها. وكان الهدف المعيّن للكتيبة الفرنسية هو الهدف نفسه للوحدات العسكرية الأخرى لحلف شمال الأطلسي. وقد حُدِّد هذا الهدف خلال مؤتمر بون في كانون الأول / ديسمبر 2001: إعادة الإعمار، والتحول الديمقراطي، والتنمية الاقتصادية لأفغانستان. إنه هدف شبيه بـ "المهمة الحضارية للاستعمار" لجول فيري [(63)]. وهو هدف غير واقعي على الإطلاق في بداية القرن الحادي والعشرين؛ لأن ضباط الجيوش الأثيرة والمريحة للعالم الغربي ليسوا على استعداد للعيش ثلاث سنوات على التوالي في تناغم تام مع الأهالي الذين من المفترض أن يقدموا لهم يد العون، كما كان يمكن أو يقوم به الملازم ساغان في تخوم الصحراء في أوائل القرن العشرين [(64)]. لن يحتفظ التاريخ العسكري الفرنسي بالتدخل في أفغانستان بوصفه نجاحًا؛ ولكن كيف يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك مع أرضية بشرية وسياسية لم تُؤخذ في الاعتبار على نحو جيد، ومع مهمةٍ غير واقعية تمامًا؟

من بين عوائق الغرب التي أتيتَ على ذكرها، عزيزي ريجيس، خطيئة الغطرسة. وفي أفغانستان، قد ظهر الغرب على وجه التأكيد بمظهر المزهو والمعتد بنفسه، إن لم يكن بمظهر المتغطرس.

ومنذ عقدين من الزمن، اعتاد الغربيون الزج بأنفسهم في حروب غير متماثلة ذات نداء "إنساني"، من دون بذل الجهد للتفكير جيدًا في العواقب

المتوسطة والطويلة الأمد بالنسبة إلى المناطق المعنية. وغالبًا ما جرى إقرار هذه العمليات الخارجية على عجل، تحت ضغط وسائل الإعلام. إن العاطفة هي ما تعطيها انطلاقتها، أكثر من العقل؛ وإنها ردة الفعل الساخنة للسياسة الداخلية، أكثر من التوقع الجيوسياسي للاعب الشطرنج.

وباعتماده على التفوق التكنولوجي الساحق، يسمح البسط الأولي السلس لآلة الحرب الغربية بتواصل حكومي رائق، يوهم الرأي العام بأنه قد جرى إعداد العملية الخارجية، من الناحية السياسية، بعناية فائقة. وفي أغلب الأحيان، ليس الأمر كذلك على الإطلاق. وقد تَمثَّل المثال الأكثر إثارة للسخرية في الغزو الأميركي للعراق في آذار / مارس 2003، وقد بدأ بمناورة عسكرية لم تشبها شائبة، وهي الاستيلاء على بغداد في غضون أسبوعين؛ لكنه استمر في أعقاب ذلك في إطار ارتجالٍ سياسي فوضوي إلى أقصى الحدود.

في المقابلة التي أجراها مع جريدة **لوفيغارو** الفرنسية بتاريخ 8 حزيران / يونيو 2013، كانت للرئيس التشادي إدريس ديبي - عن غير قصد - كلمات قاسية جدًّا عن المستوى الجيوسياسي الهاوي للغربيين: "منذ بداية الحرب في ليبيا، كنّا نعلم أن العواقب ستكون وخيمة بالنسبة إلى دول الجوار، ولكن أيضًا بالنسبة إلى ليبيا نفسها"؛ هذا ما يقوله صديق فرنسا، الذي أبت باريس أن تستمع إليه حينذاك. "بحسن نية من دون شك، كانت فرنسا تعتقد أنه سيكون لليبيا ما بعد القذافي نظام ديمقراطي ومنظّم. كان هذا حقًّا سوء فهمٍ للمجتمع الليبي"، يتابع هذا الرئيس الساحلي الذي ساعد جنوده الجيشَ الفرنسي مساعدة كبيرة في آذار / مارس 2013 على تمشيط منطقة أدرار إيفوراس (شمال شرق مالي)، إذ كانت حينذاك حرمًا آمنًا للجماعات الجهادية. فهل يتأسف إدريس ديبي على اليد الحديدية التي ظل القذافي يبسطها على بلاده وعلى منطقة الساحل الأفريقي؟ من دون شك، لأنه يكره ليبيا الجديدة هذه ويتهيب منها، وقد تحولت إلى ملاذ آمن وأرض النعيم للمقاتلين الإسلاميين القادمين من كل أنحاء العالم السني، والذين يعلنون عن اعتزامهم فرض الشريعة على أفريقيا بأسرها.

ومنذ مدة قريبة، توجّه إليّ أحد أصدقائي الدبلوماسيين الشبان، وكنت أحدثه بشأن سورية بشار الأسد، قائلًا: "هذا الشخص، ينبغي لنا اقتلاعه!". وقد صُعقت لهذا القول، حتى إنني أجبته أنه كان من المؤسف أن غادر جنودنا دمشق في كانون الثاني / يناير 1946، لأن العملية كانت ستكون أسهل لو كنا قد احتفظنا بثكنة في المكان عينه! كان لاندفاعه ذي طبيعةِ المحافظين الجدد ميزةَ الإخلاص؛ وبدا الأمر كأنه ضرورة حتمية كانطية: كان ينبغي تنحية الدكتاتور، بأي ثمن. وماذا عن العواقب على الأقليات، وعلى إدارة البلاد، وعلى التوازن الإقليمي؟ إنه لم يتوقع شيئًا من ذلك؛ سنرى ذلك في ما بعد.

فللأسف، في الجيوسياسة الغربية المعاصرة، تفيد عبارة "في ما بعد" في كثير من الأحيان "بعد فوات الأوان". وبدا لي أن سذاجة حكم هذا الصديق هي النتيجة المباشرة للأضرار الفادحة التي تُنتجها المانوية في السياسة الخارجية منذ ربع قرن.

**الأضرار الفادحة للمانوية في السياسة الخارجية**

في الغرب، صرنا نعيش جميعنا تقريبًا في ظل "ديمقراطية الرأي". إنه نظام هجين غريب حيث تجري ممارسة السلطات الثلاث العزيزة على مونتسكيو (التنفيذية والتشريعية والقضائية) في ظل الطغيان الذائع للفكر الجماعي. فعند اتخاذ القرار، وعند التشريع، وعند إصدار حكم القضاء، يكون دافع المصلحة الطويلة الأمد للبلد أقل من الرغبة في تلبية ما يُعتقد أنه الرأي المشترك للسكان؛ أي يُستجاب للإيعاز الآني والفوري (hic et nunc) لما يُعتقد أنه الرأي العام. ونظل سجناء الزمن القصير، لاستعادة تعبيرك، عزيزي ريجيس.

ولا تستثنى السياسة الخارجية من هذا الطغيان للرأي العام، كما تنقله وسائل الإعلام. ومشكلة وسائل الإعلام هي أنها تحت هيمنة ما يمكن أن أسميه "إضفاء صبغة هوليوود" (Hollywoodisation) على المعلومات. وقد وُلدت هذه الظاهرة خلال حرب الخليج الأولى الأميركية، مع بروز قناة "سي إن إن"، وهي قناة تلفزيونية تعمل على مدار الساعة وعلى مدار الأسبوع من دون انقطاع ومزودة بإمكانات هائلة، وكانت نشراتها الإخبارية تشاهَد بخشوع من جميع القادة - سواء أكانوا غربيين أم لا - ومن بعدهم من معظم المراسلين الدوليين.

مشكلة الصحافة التلفزيونية في الغرب هي أن من الصعب تلخيص وضعيةٍ معقدة في التقرير الذي ينبغي ألا يتجاوز - في العادة - دقيقتين. بيد أن سمة الصراعات معقدة جدًّا في الشرق الأوسط أو في البلقان، وهي تُشرك عددًا وافرًا من الأطراف الفاعلة المختلفة. فإذا أخذنا نموذج سورية، هناك بالطبع الأقلية العلوية الملتفّة حول عائلة الأسد، والتي تواجه تمردًا سنيًّا حصرًا. بيد أن الطائفة السنية منقسمة؛ فالمناطق الريفية والضواحي المحرومة هي في جانب التمرد، في حين ظلت البرجوازية الحضرية القديمة (التي تنتمي إليها زوجة بشار الأسد نفسها) مواليةً للنظام. وتُعتبر الأقليتان المسيحية والدرزية في سورية مع النظام (خوفًا من هيمنة سياسية إسلاموية سنية محتملة)؛ لكن في المشرق، ليس جميع المسيحيين موالين للأسد. ففي لبنان، ينقسم المسيحيون إلى نصفين متساويين: أتباع الجنرال ميشال عون (الذي عقد تحالفًا سياسيًّا مع حزب الله) هم مؤيدون للأسد، في حين أن أنصار القوات اللبنانية التي يتزعمها سمير جعجع هم معارضون للأسد بشراسة. ولا ينتهي التعقيد عند هذا الحد؛ فهناك أيضًا الأكراد؛ وهم الذين كان النظام يحاربهم في

ما مضى، قبل أن يصبحوا اليوم حلفاءه الموضوعيين. وبذهابه إلى درجة تشجيع النزعة الانفصالية الكردية، يسعى نظام دمشق لمعاقبة تركيا التي يحكمها رئيس الوزراء الإسلامي رجب طيب أردوغان الذي وقف إلى جانب التمرّد. إضافةً إلى ذلك، هناك أداء العراق (وأداء العشائر السنية في منطقة الأنبار، وهو ليس الأداء نفسه)، وأداء كل من إيرانٍ والمملكة العربية السعودية وقطر، وهو ما سيكون عرضه بالتفصيل هنا طويلًا جدًّا.

باختصار، لا تخضع الحرب الأهلية الحالية في سورية لمعايير تفسيرية بسيطة. وفي مثل هذه الحالة من التعقيد الجيوسياسي، سيكون اتجاه الصحافي الغربي بطبيعة الحال هو السعي للتبسيط. وستصبح المانوية أداته: هناك أشرار (الدكتاتورية وزمرتها)، وهناك أخيار (المتمردون الذين يقاتلون من أجل الديمقراطية). والقصة باختصار تكون على النحو (pitch): يقتل الأشرار الأخيار الذين هم في الآن ذاته ضحايا أبرياء، وحكومتي تسخر من ذلك إلى حد أنها لا تحرّك ساكنًا!

المانوية، وهي مرض طفولي لوسائل الإعلام الحديثة في الغرب، مسؤولة عن عمى معظم المراسلين الذين غطّوا "الربيع العربي". فبإيلائهم الاهتمام فحسب لضجيج الحشود التي كانت تطلق صيحات الاستنكار ضد أسماء الطغاة، طبّق الصحافيون مخططًا بسيطًا: الشرير في السلطة، والخيّر في الشارع. ويكفي أن يختفي الشرير لكي يتحسن كل شيء. وقد استهانت وسائل الإعلام تمامًا بصعوبات إقامة طريقٍ ثالث قابل للتطبيق في العالم العربي.

**المخاض الصعب لإقامة طريق ثالث في العالم العربي**

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، اتسم العالم العربي بحركة الاستقلالات الوطنية. وقد جرى إعلان الديمقراطية البرلمانية في كل مكان في الأراضي التي تحررت من الوصاية البريطانية والفرنسية. وقد عملت هذه الديمقراطية لمدة من الزمن، بطريقة أو أخرى وعلى نحو متعثر، ثم استُبدلت في كل مكان تقريبًا بالدكتاتوريات العسكرية. سورية، ومصر، والعراق، والجزائر، وليبيا، والسودان، واليمن، وتونس: طويلةٌ قائمة هذه البلدان حيث أخذت النخبة المميزة [65] العسكرية السلطة بالقوة، من دون أي نية في إخضاع إدارتها للشؤون العامة لاحقًا لحكم الشعب صاحب السيادة. ولأن هذه الأنظمة كانت تحظر أي معارضة سياسية كلاسيكية، على اعتبار أنه لم تكن تسود فيها أي حرية للتعبير أو التجمع، فإن الانشقاق قد نما شيئًا فشيئًا في المساجد، وهي أماكن التجمع الوحيدة التي كانت تسمح بها السلطات. وابتداء من أواخر سبعينيات القرن الماضي، تعافت حركة جماهيرية قديمة وشدّت عضدها من جديد في جميع أنحاء العالم العربي: إنها جماعة الإخوان المسلمين، التي أُسِّست في عام 1928 على يد مدرّس مصري من

الإسماعيلية، وفق النموذج التنظيمي للحزب الفاشي الإيطالي. وكان هدفها إنقاذ مصر خصوصًا، وأمة المسلمين عمومًا، من "الفساد الأخلاقي" الذي تجلبه الطبائع البريطانية، من خلال عودة إلى القيم الإسلامية. وقد أصبحت بعد عام 1945 المنظمة السياسية الأولى في مصر من حيث عدد أعضائها. وبعد أن دعمت إطاحة النظام الملكي في مصر على يد "الضباط الأحرار"، تخاصمت سريعًا معهم، لتتعرض للقمع الشديد على يد العقيد جمال عبد الناصر، وتعتمد السرية في العمل. وعلى نحو شبه آلي، جعل الفشل الاقتصادي والسياسي والاجتماعي اللاحق للأنظمة القومية العسكرية جماعة الإخوان المسلمين تبرز من جديد بوصفها القوة السياسية الرئيسة المنظّمة في العالم العربي، سواء عبر غض الطرف عنها أو من خلال السرية.

وفي كانون الثاني / يناير 2011، عندما اندلعت الثورات العربية، كان الأمل متقدًا في الطبقات المثقفة لرؤية هذه المجتمعات الإسلامية تتحرر من البديل الجهنمي؛ إما عصا الجيش، وإما سوط الملتحي. ومن الواضح أن الشباب المصري، الذي كان قد طوّق ميدان التحرير في القاهرة، كان يدعو إلى إقامة طريقٍ ثالث، قائمٍ على أساس الديمقراطية التمثيلية والفصل بين ما هو ديني وما هو سياسي.

الحصيلة التي يمكن أن نستخلصها من "الربيع العربي"، بعد ثلاث سنوات ونصف السنة على بدئها، هي للأسف سلبية. فقد أصبح التطلعُ الشعبي إلى مزيد من الحرية وإلى مزيد من الشفافية في إدارة الشؤون العامة رهينة عودة المواجهة القديمة بين العسكر والإخوان المسلمين.

ففي مصر في بدايات عام 2014، كان "الاحتفال" بالذكرى الثالثة لثورة 25 كانون الثاني / يناير مخضّبًا بالدم (أكثر من خمسين قتيلًا). ولم تكن هذه أفضل طريقة لترسيخ فضائل الدستور الليبرالي في اللاوعي الجماعي، والذي كان قد اعتُمد للتو من طريق الاستفتاء، مع عدد من الأصوات أعلى بكثير من ذاك الذي كان قد حصل عليه المشروع الإسلامي المحافظ المقترَح من جماعة الإخوان المسلمين في عام 2012. وبسبب رعونته، استهلك الجيش المصري كثيرًا من الرصيد الشعبي الذي جلبه له دعمه الحاسم لحركة "تمرّد"، في 30 حزيران / يونيو 2013، والتي تضم الشباب والطبقات المتعلمة الثائرين ضد الإهمال والتقصير وتحيُّز الإسلاميين في السلطة التي مارسوها في أعقاب انتصارهم في انتخابات عام 2012. ويختم انتخاب قائد الجيش، المشير عبد الفتاح السيسي، رئيسًا للجمهورية في 25 أيار / مايو 2014 (بنسبة 93 في المئة من الأصوات، ولكن بنسبة 46 في المئة فقط من المشاركة)، الفشل النهائي للطريق الثالث، الذي كان يُنادي به مدوّنو ميدان التحرير في البداية الأولى لـ "الربيع العربي".

وفي سورية، تقوم حرب أهلية بين جيش النظام والميليشيات المتمردة التي أغلبيتُها من الإسلاميين. ولا يوجد هناك طريق ثالث إلا كشمعة صغيرة تومض في نهاية نفق هائل: إنها هذه الفكرة - هذا الحلم؟ - التي دافع عنها الغرب والروس؛ أي حكومة انتقالية قادرة على التوفيق بين الأطراف. ولكن يبدو أن فشل مؤتمر جنيف في كانون الثاني / يناير 2014 قد أطفأ الشمعة. وقد أبطل بشار الأسد تمامًا فكرة هذه المصالحة الوطنية حين قرر في ربيع 2014 تجديد ولايته رئيسًا.

وفي ليبيا، وهي البلد الذي انزلق إلى حالة من الفوضى، لم تعد المرجعيةُ العقيدَ ولا الملتحي، وإنما القبيلة. ولا يمكن أن يوجد طريق ثالث سوى في دولة موجودة سلفًا. لكن في ليبيا ما عادت توجد دولة. وفي الجزائر، ما عادت سلطة الجنرالات المتصلبة، بعد إهدارها خيراتٍ نفطية هائلة، قادرةً على أن تقدم لشعبها قائدًا ممكنًا سوى طلعة رجل عجوز نصف مشلول [بوتفليقة].

ولا يزال المجتمع التونسي وحده يوحي بالأمل في انتصار الطريق الثالث. هل ذلك لأن تحرير النساء قد جرى هناك منذ أكثر من نصف قرن؟ في أي حال، لقد انتهت البلاد إلى اعتماد دستور ليبرالي، وأفلح الإسلاميون والعَلمانيون في التوافق على تشكيل حكومة تكنوقراطية؛ لذا ليس البلد مسدود الأفق. تُجسّد تونس أملًا هشًّا، لكنه الوحيد الذي ما زلنا نتوفر عليه في العالم العربي ما بعد الثورة.

وقد قُلتَ ذلك، عزيزي ريجيس، إن الغرب موقن أن قيمه كونية. وفي مسألة الثورات العربية، كان تبجيل الديمقراطية مستحوذًا عليه إلى حد أنه ما عاد يميز داخل هذه الثورات الصعودَ المموَّه لعدوه الحقيقي. والحال هذه، فإن للغرب عدوًّا رئيسًا يرفض بشكل غريب أن يسميه بوضوح. هذا العدو ذو طابع أيديولوجي وليس متحدرًا من قومية معينة. فالقوميتان الروسية والصينية ليستا، في أساسهما، جوهريًّا معاديتين للغرب. عدونا الرئيس، هو الإسلام السياسي الدولي.

**الإسلام السياسي الدولي: العدو الرئيس للغرب**

في منتصف ثلاثينيات القرن الماضي، فشل الخبراء الاستراتيجيون الباريسيون، سواء كانوا عسكريين أو سياسيين، في تحديد من كان العدو الرئيس لفرنسا وأي حصائل عملية كان ينبغي استخلاصها. مع ذلك، منذ وصول هتلر إلى السلطة في أوائل عام 1933، كانت الأمور واضحة تمامًا. ففي كتاب **كفاحي** (*Mein Kampf*) الذي نُشر في عام 1925، كان الفوهرر قد استعرض بوضوح أيديولوجيته التي كانت تشمل، فضلًا عن القضاء على اليهود والاستيلاء على "مجال حيوي" في الشرق، تدمير فرنسا بوصفها قوة. والحال هذه، أثبتت مختلف الحكومات في تلك الحقبة - التابعة جميعها بصورة أو بأخرى للحزب الراديكالي - عجزَها عن تعيين الرايخ الثالث بوصفه العدو

الرئيس لفرنسا والعمل وفقًا لذلك من أجل تحالف خلفي مع الاتحاد السوفياتي ممثَّلًا بجوزف ستالين، كما فعل ذلك سادي كارنو مع روسيا القيصرية منذ عام [66]1891. ولمجموعة أسباب متنوعة - الأكثر قابلية للتصريح في العالم - كان الحزب الراديكالي يكره البلشفية. لكن عبر تفضيل عواطفهم على مصالح فرنسا على الأمد الطويل، لم يُسْدِ قادتنا الراديكاليون الاشتراكيون خدمة للبلد؛ لأن ستالين حتى لو كان بغيضًا في طريقة حكم الشعب الروسي، فقد كان يجب علينا، على الرغم من ذلك، أن نتحالف معه؛ فهو، على الأقل، لم يحلم يومًا بتدمير فرنسا. وعندما أخذَنا الاتفاق الألماني - السوفياتي لعدم الاعتداء بتاريخ 23 آب / أغسطس 1939 على حين غرة، كان قد فات الأوان للفهم. وكان هتلر قد لعب استراتيجيًّا، وليس نحن.

وعلى افتراضِ كلِّ العوامل الأخرى ثابتة [67]، نجد أنفسنا اليوم، نحن الفرنسيين، في شراك الارتباك الاستراتيجي نفسه. فنحن لا ننجح في الوصول إلى تحديد عدونا الرئيس، مع أن هذا العدو لا يتقدم مقنَّعًا، كما كان الحال مع النازيين في ما مضى، لا في التعبير الكتابي عن أيديولوجيته، ولا في تصرفاته العدوانية الفجائية. إنه الإسلام السياسي الدولي. وسواء أكان يسفك دماء المسيحيين الباكستانيين لدى خروجهم من كنيسةٍ في بيشاور، أو متنزهين كينيين يقومون بالتسوق في مركز تجاري بنيروبي، أو طلابًا نيجيريين بمدرسة ثانوية زراعية، فإنه يُفعّل الأيديولوجيا نفسها في كل مكان، وهي أيديولوجيا شريعةٍ ينبغي فرضها على الجميع رجالًا ونساء، وإن لزم الأمر عبر الرعب. وكان يمكن أن نأمل أن الهجوم على أنور السادات (6 تشرين الأول / أكتوبر 1981) قد فتح أعين القادة الغربيين؛ فهذا رئيس مصري اغتيل لتوقيعه سلامًا مفيدًا جدًّا لبلاده مع دولة إسرائيل. [بيد أنه] بالنسبة إلى مناصر للإسلام السياسي، ينقسم العالم إلى منطقتين: دار الإسلام ودار الحرب [68]. وإذا ما جرى يومًا الاستيلاء على أرضٍ بيد جيش مسلم (كما هو حال فلسطين التي كانت تاريخيًا تحت سلطة الإمبراطورية العثمانية حتى عام 1917)، فإنها تظل حينئذ جزءًا لا يتجزأ من دار الإسلام إلى الأبد. وكون السادات وافق على التفاوض مع الدولة اليهودية، فقد جعله ذلك خائنًا وحُكم عليه بالإعدام كما لو كان مرتدًا. ولم يفهم الغربيون سوى النزر اليسير من طبيعة هذه الفاشية الخضراء، إلى حد أنهم تخلّوا عمّن كانوا تحت حمايتهم، أي المَلَكيات النفطية في الخليج الفارسي [69]، يغذون هذه الأيديولوجيا الهدامة على أراضيهم، كما هو الحال في المساجد التي بُنيت في الخارج بأموالهم. صحيح أن الأميركيين كانوا لا يزالون مهووسين بمناوأتهم لـ "عدوهم الرئيس" منذ أواخر أربعينيات القرن الماضي، الاتحاد السوفياتي الذي كان قد غزا لتوّه أفغانستان.

هل الدكتاتوريون العسكريون العرب، عَلمانيين وقوميين، هم "أعداء رئيسيون" لفرنسا؟ إنهم ليسوا كذلك بحكم طبيعتهم ذاتها؛ لكنهم يمكن أن

يصبحوا كذلك وفقًا للأحوال، مثلما كان جمال عبد الناصر في عام 1956، حيث ساعد على التمرد الجزائري لجبهة التحرير الوطني. ومنذ عام 2011، نتعامل مع بشار الأسد كما لو كان قد أصبح العدو الرئيس لفرنسا. من دون ريب كان ينبغي علينا أن نكيل الكيل بشراسة عندما اغتال والده سفيرَنا في بيروت في عام 1981، أو عندما قصف أصدقاءنا المسيحيين في حي الأشرفية في عام 1989[70]؛ لكن ماذا عن اليوم؟ من الواضح أن مصادرة السلطة من لدُن العَصَبية (الجماعة الأهلية التي تتشارك المصالح نفسها) حول آل الأسد منذ عام 1970 لم تنجح في سورية. فتطوُّر الإسلام السياسي هو وليد دكتاتوريتهم. لكن كون عشيرة الأسد تحكم بشكل سيئ أو بوحشية فهذا لا يجعل منها عدونا الرئيس. وعلى اعتبار أنه ليس لدينا حاليًّا أي حل بديل ينسجم مع مصالحنا لتنصيبه في دمشق (لقد أصبح "الائتلاف الوطني السوري" مهزلة)، فعلينا أن نركِّز جهدنا الاستراتيجي على القضاء على أعدائنا الرئيسيين، سواء وجدوا ملجأ في الصحراء الليبية، أو في المناطق القبلية الباكستانية، أو في جنوب الصومال، أو حتى في أقصى شرق تركيا الممثَّلة برجب طيب أردوغان.

يبدو لي مفهوم "العدو الرئيس" هذا، عزيزي ريجيس، حاسمًا لمن يريد فك شفرة الرهانات الكبرى التي تنتصب اليوم أمام الوعي الغربي. إنه مفهوم يبدو لي سديدًا أكثر من المانوية "الأخيار، الأشرار" (good guys, bad guys). وسواء شئنا ذلك أم أبينا، نحن نشهد اليوم في الغرب ارتدادًا لسياسة العاطفة وعودةً كبرى للسياسة الواقعية (Realpolitik).

**العودة الكبرى للسياسة الواقعية**

في المجال الدولي، استُهل عام 2014 بحدثٍ ذي دلالة رمزية بالغة: استيلاء ميليشيا إسلامية مرتبطة بتنظيم القاعدة على مدينة في العراق يسكنها 350 ألف نسمة. عندما زرت الفلوجة، متتبعًا نهر الفرات ومتجهًا إلى الأردن في مستهل عام 2003، كانت بلدةً هادئة، ورعة إلى حد ما، ومأهولة من صغار الموظفين وصغار التجار. ولم تكن ساكنتها التي كانت تقريبًا بالكامل سنّية، موالية حقًّا ولا معارضة حقًّا لنظام صدام حسين. وعندما دخلها الجنود الأميركيون من دون إطلاق رصاصة واحدة في نيسان / أبريل 2003، استُقبلوا من دون عداء معيّن، مع نوع من اللامبالاة المهذبة. وفي أعقاب سلسلة من الأخطاء غير المتعمَّدة المؤسفة وذات التداعيات الشنيعة التي ارتكبتها الإدارة التي نصّبتها وزارة الدفاع الأميركية، طردت المدينة محتليها الغرباء. وفي خريف 2004، استعاد الجيش الأميركي السيطرة عليها، في عملية خلّفت على الأقل خمسة آلاف ضحية مدنية. وعلى النقيض من حلم المحافظين الجدد الذي برر غزو العراق في آذار / مارس 2003، لم تستقر الديمقراطية التمثيلية في الفلوجة، ولا الوئام المدني، ولا الازدهار الاقتصادي. ومنذ 4

كانون الثاني / يناير 2014، أصبح يرفرف فوقها العلم الأسود لـ "الدولة الإسلامية في العراق والشام" (داعش)، وهي منظمة إرهابية احتجزت لمدة طويلة على الأراضي السورية أربعة صحافيين فرنسيين رهائن عندها (مع جعل حراستهم على يد جهاديين قادمين من فرنسا ويتحدثون الفرنسية بطلاقة!). وفي 10 حزيران / يونيو 2014، جاء الدور على الموصل، ثاني أكبر مدينة في العراق، وموضع تجمّعٍ ضاربٍ في أعماق التاريخ للمسيحية في بلاد ما بين النهرين، لتقع بين أيدي تنظيم الدولة الإسلامية.

يجسِّد مصير العراق وحده الفشل المدوي للدبلوماسية الواعظة والعسكرية التي صممها جورج بوش الابن ومستشاروه من المحافظين الجدد، عقب الصدمة النفسية القوية لاعتداءات 11 أيلول / سبتمبر 2001. وإذ لوّح الرئيس الأميركي بـ "محور الشر" في خطابه بشأن حالة الاتحاد في كانون الثاني / يناير 2002، جمع هذا المفهوم على نحو غريب كوريا الشمالية وإيران الشيعية والعراق الذي كان يحكمه حينئذ السنة. ولم يحدث قط في التاريخ الحديث استخدام مفهومٍ أجوف بهذا القدر لتبرير الحرب. فمنذ أن كتب ثوكيديدس **الحرب البيلوبونيزية** (*Guerre du Péloponnèse*)، كان دائمًا تبسيطيًّا النظرُ إلى تاريخ العلاقات بين الأمم من منظور الصراع بين الخير والشر فحسب. وقد فهم ذلك جيدًا بسمارك البروسي، مخترع السياسة الواقعية، عندما امتنع، عقب انتصاره العسكري في عام 1866 ضد النمسا ودول جنوب ألمانيا، عن طلب تعويضات: "ليس علينا أن نختار محكمة، بل يجب علينا بناء السياسة الألمانية"، يُوضّح المستشار الأول للملك فيلهلم الأول. وقد سمح هذا التساهل لبروسيا بأن تحصل بعد أربع سنوات على دعم النمسا في حربها ضد فرنسا، وأن تحقِّق الوحدة الألمانية. ويُعرِّف واقعيٌّ كبير آخر، هو هنري كيسنجر، مهندس استئناف العلاقات الدبلوماسية للولايات المتحدة مع الصين، السياسةَ الواقعية بوصفها "السياسة الخارجية المؤسَّسة على [عملية] حساب القوى والمصلحة الوطنية". هذه بالضبط هي السياسة التي صارت تسود في لعبة القوى العظمى؛ ذلك أن عدول الغربيين، في أيلول / سبتمبر 2013، عن بدء الضربات "العقابية" ضد سورية بشار الأسد قد أشّر إلى نهاية فترة الحروب "الإنسانية"، وكذلك إلى نهاية التدخلات باسم الأخلاق "الكونية" التي استُهلت في بداية تسعينيات القرن الماضي، والتي كانت الحرب ضد ليبيا القذافي "الشرير" في عام 2011 آخر تجسيد لها.

قبلت أميركا بارتياح المبادرة الروسية لنزع السلاح الكيميائي السوري لتجنّب التدخل العسكري الغربي بها، وجرى اعتمادها بسهولة من لدن مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة في 27 أيلول / سبتمبر 2013. وتبقى هذه المبادرة الروسية نموذجًا للسياسة الواقعية، على اعتبار أنها تراعي المصالح الوطنية للقوى الكبرى المعنية: فأميركا، المصدومة نفسيًّا بشدة بإخفاقاتها الأفغانية

والعراقية، أفلتت من كابوسٍ حربٍ جديدة في الشرق، وروسيا تنقذ حليفها القديم السوري وتصبح من جديد فاعلًا دبلوماسيًّا رائدًا، ويقلل نزع السلاح الكيميائي للجيش النظامي السوري تقليلًا ملحوظًا من مخاطر مخازن غاز السارين التي كان يمكن أن تسقط، بالمصادفة في خلال العمليات، بين أيدي الجماعات الإسلامية التي لن تتأخر عن استخدامها في وقت لاحق في مترو الأنفاق في نيويورك، أو في موسكو، أو في باريس.

وشاء سوء حظ ألمانيا أنه عقب وفاة بسمارك استُبدلت سياسته الواقعية الحكيمة بـ "سياسة التوسع العالمي" (Weltpolitik) الخطرة لفيلهلم الثاني، وهو إمبراطور "مخمور" بالنجاح الصناعي الألماني الرائع في منعطف القرنين. وابتداء من عام 1978، كان للصين في عهد دنغ شياو بينغ حكمة التخلي عن الأيديولوجيا لمصلحة السياسة الواقعية، في الدبلوماسية كما في الاقتصاد. وعقب الاعتراف والمكانة اللذين منحها إياهما التنظيمُ المحكم لدورة الألعاب الأولمبية الصيفية لعام 2008، أصابت الصين الغطرسة وبدأت تحلم بما يربو قليلًا عن "سياسة التوسع العالمي". وقد مارست، في بحر الصين الشرقي وبحر الصين الجنوبي، سياسة توسعية لمجالها البحري، مضاعِفةً الحوادث مع صيادي البلدان المتشاطئة أو بواخرها. وسرعان ما عادت السياسة الواقعية على عجل؛ فقد تحالفت كل القوى المتشاطئة (اليابان، وفيتنام، والفلبين، وسنغافورة، وماليزيا، وإندونيسيا، وبروناي، وغيرها) لطلب العودة القوية للقوات البحرية الأميركية في المنطقة. وهو ما استجاب له الرئيس باراك أوباما، بإقرار تخصيص 60 في المئة من سفن البحرية الأميركية وطواقمها لهذه المنطقة ابتداء من عام 2014. وما كان يمكن هذا "الدوران حول المحور" للاستراتيجية الأميركية تجاه آسيا أن يتحقق إلا بفعل تغيير عميق في الموقف إزاء "قوس الأزمة" التقليدي، الممتد من سواحل الشام إلى جبال هندوكوش.

**تغيّر الاستراتيجية الأميركية في "قوس الأزمة"**

وقّع باراك أوباما شهادة وفاة الحرب العالمية على الإرهاب (global war on terror) في خطابه يوم الخميس، 23 أيار / مايو 2013، في جامعة الدفاع الوطني [بواشنطن]؛ وهي الحرب التي كان قد أطلقها سلفه عقب الصدمة النفسية القوية لاعتداءات الإسلام السياسي في 11 أيلول / سبتمبر 2001. ولتفادي جرح مشاعر الجمهوريين، تحدّث الرئيس الأميركي بلباقة، بيد أن التغيير في الاستراتيجية كان واضحًا جدًّا: لقد تخلت الولايات المتحدة عن اعتماد معركتها ضد الإرهاب على تدخلات عسكرية واسعة النطاق. فقد أظهرت الأمثلة المؤسفة في العراق وأفغانستان أن الغربيين لا يعرفون كيف يقومون، في أعقاب عملية غزو، بـ "بناء الأمة" (nation building) في أرض الإسلام. وليس الرئيس أوباما ساذجًا؛ فهو يعلم أن الكراهية المتعصبة لأميركا سوف تستمر مدة طويلة في قلب بعض المناضلين السنّة؛ لكنه يريد محاربتها

أو تجفيفها بوسائل أكثر مخاتلة من الحرب بضربات القاذفات المقاتلة والوحدات المدرعة.

لا يتعلق الأمر بعودة إلى الانعزالية، كما كان الحال في ثلاثينيات القرن الماضي، بل على العكس من ذلك: "أيّ انسحاب من طرفنا من المناطق الصعبة في العالم ليس من شأنه إلا أن يؤدي إلى زيادة التهديدات ضدنا في الأمد الطويل"، وفق قول الرئيس الأميركي. ومن ثم، فالمسألة ليست تخلّي الولايات المتحدة عن الدول المسلمة في "قوس الأزمة" لمصلحة الحركات الجهادية، والذي يمتد من البحر الأبيض المتوسط إلى آسيا الوسطى، بل يتعلق الأمر بإيجاد أشكال أخرى للفعل والعمل.

وقد أتى باراك أوباما بالطبع على ذكر اللجوء إلى الطائرات من دون طيار والغارات الاستهدافية للقوات الخاصة، لكن تصريحاته ذهبت إلى أبعد من ذلك؛ إذ يُحركه طموح استراتيجي بالغ. إنها العودة إلى سياسة التعاون الأمني القائم على أساس الفاعلين المحليين. وقد قال الرئيس الأميركي بإصرار: "بالمال الذي ننفقه في شهر واحد من حربنا في العراق، قد يمكننا أن نكوِّن شرطةً وجيشًا في ليبيا، ونحافظ على اتفاقيات السلام بين إسرائيل وجيرانها، ونُطعم الجياع في اليمن، ونبني المدارس في باكستان، ونخلق خزانات للإرادة الطيبة تعمل على تهميش المتطرفين".

في واشنطن، حيث جرى طرد منظّري المحافظين الجدد من البيت الأبيض والبنتاغون ووزارة الخارجية، تخلت السلطات مرة وإلى الأبد عن فرض الديمقراطية بالقوة. وما عادت استراتيجية الغزو العسكري الذي يتبعه تغيير النظام عملة رائجة. فقد انتصرت البراغماتية على الدوافع الأيديولوجية، وجرى استخلاص الدروس من أخطاء الماضي. وأولى هذه الأخطاء تعود إلى عام 1989، عقب انسحاب الجيش الأحمر من أفغانستان. فقد أثبتت أميركا أنها لم تكن قادرة على النظر في عروض التعاون التي اقترحها عليها الدكتور نجيب الله، الرئيس الشيوعي لأفغانستان. فقد كان هذا، بوصفه شخصًا واقعيًّا ووطنيًّا، مستعدًا لقبول كل شيء - بما في ذلك عودة النظام الملكي - من أجل تسهيل انتقالٍ سلمي بإمكانه إشراك المتمردين المجاهدين تدريجيًّا في ممارسة السلطة. فهل كان ذلك من التوحد (autisme) إزاء الشرق الذي كان بصدد أن يصبح معقدًا جدًّا؟ أم هي نشوة الانتصار المفاجئ وغير المتوقَّع في الحرب الباردة؟ يبقى أن إدارة بوش 41 (الرئيس الحادي والأربعون للولايات المتحدة، وخليفة رونالد ريغان) قد تجاهلت المقترحات المعقولة القادمة من كابول. وبعد ثلاث سنوات، سقطت العاصمة في أيدي المجاهدين الذين تمكنوا من تدميرها على نحو كامل تقريبًا في خضم اقتتالهم الداخلي. ثم جاء، في عام 1996، نظام طالبان التطهيري، ونحن نعرف بقية القصة...

لا يزال أوباما يدفع إلى اليوم ثمن المغامرة العسكرية لسلفه بوش 43 [جورج بوش الابن]. ولأن أميركا قد خسرت، في الحملتين الأفغانية والعراقية، كثيرًا من هيبتها وقوتها الرادعة، فإن الرئيس الحالي لا يسعه سوى أن يعاين ضعفها المحفوف بالمخاطر في "قوس الأزمة": عجز في مواجهة صعود التطرف الوهابي في جميع أنحاء العالم السني، وعجز في مواجهة مسلسل تمزق سورية والعراق، وعجز في مواجهة الحرب الباردة بين السنّة والشيعة في الخليج الفارسي [الخليج العربي]، وعجز في مواجهة طالبان الذين ينشطون على كلا جانبي الحدود الأفغانية - الباكستانية، وعجز في الملف الإسرائيلي - الفلسطيني، في مقابل التعنت المزدوج لكل من الليكود وحماس.

الشيء المهم هو أن هذا العجز لم يُفقد أوباما هدوء أعصابه ولا أمله. إنه يعلم من دون شك أن الشبيبة المتعلمة في طهران أصبحت من جديد موالية جدًّا للولايات المتحدة. لذا قرر الرئيس الأميركي، في "قوس الأزمة"، منح الامتياز للقوة الناعمة (soft power) للتعاون على القوة الصلبة (hard power) للحرب التقليدية.

وقد أظهر هذا الخطاب الرئاسي بتاريخ 23 أيار / مايو 2013 أن أميركا قادرة على التخلص مما تسميه أنت "عقدة التفوق المسبّبة للعمى". وفي خطابه بتاريخ 28 أيار / مايو 2014 أمام طلاب المدرسة العسكرية في وست بوينت، كان الرئيس الأميركي أشد وضوحًا. فقد قال باراك أوباما، بعد أن اعترف بأن التهديد الرئيس الموجَّه ضد بلاده يظل هو "الإرهاب" (لم يربطه بالإسلام، لكي لا يخدش مشاعر مليار ونصف المليار من المسلمين في العالم)، بأنه في آن واحد من السذاجة ومن غير المستدام (unsustainable) (ما يمكن ترجمته بأنه "غير واقعي سياسيًّا وغير محتمل ماليًّا") التعامل مع هذا التهديد بالاجتياح العسكري للدول التي تؤوي، طوعًا أو كرهًا، الزمر الإرهابية.

إن الميزة الكبيرة للفكر السياسي الغربي هي أنه ليس جامدًا أبدًا وأنه يعرف كيف يتطور في بعض الأحيان؛ إنه يظل وليد الحرية. ولذا عندما فهم الناخبون الأميركيون أن سياسة الشرق الأوسط لجورج بوش الابن تقود إلى طريق مسدود، غيّروا اتجاههم 180 درجة ليعهدوا بالسلطة التنفيذية إلى باراك أوباما، وهو النقيض تمامًا لسلفه.

مع ذلك، لم يُسلّم فكر المحافظين الجدد في أميركا الروح بعد، ويحدث أحيانًا أن يطفو على السطح من جديدٍ بالفجائية نفسها والحدة نفسها كما طفا أول مرة عند وصول جورج بوش الابن إلى البيت الأبيض. وقد كشفت الأزمة الأوكرانية، خلال شتاء عام 2014 وربيعه، غربًا أسيرًا للزمن القصير، والغطرسة العالمية المفرطة، وعُقدة التفوق في الآن ذاته.

**الطيش الغربي الكبير في الأزمة الأوكرانية**

تجاوزت أحداث الأزمة الأوكرانية قادتنا في الغرب. ففي البداية هنّأ بعضهم بعضًا بنصر سياسي منحه الشارع، وفي اليوم التالي صاروا عبوسين ومقطبين أمام تغيير الحدود الدولية الذي تحقَّق بالقوة. ففي يوم السبت، 22 شباط / فبراير 2014، فرحت النخب السياسية والإعلامية في واشنطن ولندن وباريس وبرلين بصخبٍ بسبب انهيار نظام الرئيس الأوكراني فيكتور يانوكوفيتش الموالي لروسيا. وفي يوم الإثنين 17 آذار / مارس، استيقظت هذه النخب برؤوس مثقلة من خمرة رؤية شبه جزيرة القرم تختار - في نشوة - إلحاقها بروسيا. وعلى الرغم من أن الأحوال التي جرى فيها استفتاء الإلحاق بتاريخ 16 آذار / مارس 2014 قد شابها قصور غير قليل، فإنه كان يلزم الغرب أن يتوقف عن الكذب على نفسه؛ إذ لم يذهب أيّ جندي روسي إلى الناخب في القرم تحت تهديد السلاح، وكان الابتهاج الذي قوبلت به نتيجة الانتخابات حقيقيًّا، مساء يوم الأحد 16 آذار / مارس، في الساحة المركزية في سيمفيروبول (Simferopol)؛ العاصمة السوفياتية لشبه جزيرة القرم.

لم تفقد أوكرانيا شبه جزيرة القرم على نحو دائم فحسب، بل إن مناطقها الشرقية الناطقة باللغة الروسية بدأت تعطي إشارات للانفصال مثيرة للقلق.

فما الأخطاء التي اقترفها الغرب في هذه الأزمة؟ أرى أربعة منها على الأقل:

**1. سوء تقدير الغرب لغريمه**

اعتقدنا بسذاجة أن بوتين - وهو ليس عدوًّا لنا، وإنما غريمنا فحسب في لعبة تأثيرات النفوذ في أوكرانيا - لا يمكن أن يفعل شيئين في الوقت نفسه. فما دام مشغولًا بدورة الألعاب الأولمبية في سوتشي، فليس من شأنه أن يسعى، في الآن ذاته، للتدخل في شؤون أوكرانيا! بيد أن هذا البلد الذي هو في الآن ذاته مهد الحضارة الأرثوذكسية الروسية وحليف مُسكوفي [(71)] منذ عام 1654، لا يمكن أن يكون غير ذي بال بالنسبة إلى الكرملين. إن عدم فهم ذلك هو خطأ ناشئ عما تسميه أنت، عزيزي ريجيس، "الغطرسة العالمية المفرطة".

**2. إذلال الغرب لغريمه**

بذلت روسيا جهدًا جبارًا في سوتشي. وكانت هذه الألعاب [الأولمبية] فرصة لبوتين لإظهار أن روسيا قد تمكنت من تحديث نفسها وأنها أفلحت في تجاوز حروب القوقاز خلال السنوات العشرين الماضية. ولم يكن الأمر ليكلف كثيرًا أوباما وكاميرون وهولاند من أجل أن يقلّدوا نظيرهم الصيني ويشرّفوا حفل الافتتاح بحضورهم. وهذا كان من شأنه أن يخلق، بين واشنطن ولندن وباريس وموسكو، مناخًا من الثقة افتُقد إلى حد بعيد في وقت لاحق.

**3. لم يسعَ الغرب لاستباق ردات فعل غريمه**

لهذا الغرض، كان ينبغي بذل جهد مسبق لمعرفته جيدًا. فعقب أحداث جورجيا في آب / أغسطس 2008، كان بوتين ومدفيديف قد أعلنا عقيدتهما: تلمس روسيا في نِفسها الحق في التدخل في كل مكان مِن أجل حماية

المواطنين الروس أو الناطقين باللغة الروسية؛ إنها غيورة جدًّا على "منطقة نفوذها"، تقريبًا بقدر ما كان مونرو سابقًا غيورًا تجاه أميركا اللاتينية [72]. وهي تعاتب الغرب على أنه قد أخلف الوعد الذي قطعه المستشار هلموت كول لميخائيل غورباتشوف في عام 1989 بأن حلف شمال الأطلسي لن ينتشر أبدًا على حدود روسيا.

الدبلوماسية السيئة هي وليدة الجهل في غالب الأحيان. ففي عام 1654، التحقت أوكرانيا طوعًا بروسيا، واستمر هذا الترابط حتى تفكُّك الاتحاد السوفياتي في عام 1991. وفي روسيا الأرثوذكسية، تقل أهمية حرية الفرد عن أهمية مجد الأمة. ويختلف المجتمع الروسي عن مجتمعنا. وإذا ما أصررنا على تجاهل فخر [عزة نفس] روسيا، والتغاضي عن إرث الوطنية السوفياتية، فلن نفهم أبدًا هذا العالم. وكوننا لا نود أن يحكم بلادنا من هو على شاكلة بوتين، لا يعني على الإطلاق أن مثل هذا الشعور سائد في روسيا. وشئنا أم أبينا، فإن شعبية القيصر بوتين حقيقية في بلده، وقد أيدته أغلبية كبيرة من السكان الروس في تحديه الحالي للغرب بشأن المسألة الأوكرانية. نعم، ريجيس، لقد أصابتنا الغطرسة العالمية المفرطة بالعمى فعلًا!

**4. ينبغي للغرب ألا يتخلى أبدًا عن حقل المعركة الدبلوماسية ما دام لم يجد بعد مخرجًا أكيدًا**

في محاولةٍ لإنهاء حمّام الدم في ساحة ميدان (Maïdan) [في كييف]، كان لوزراء الخارجية الألماني والفرنسي والبولندي الحس السليم للتوجه بسرعة إلى أوكرانيا يوم الخميس 20 شباط / فبراير 2014. ولكن بالكاد أنتجت وساطتهم اتفاقًا سياسيًّا بين يانوكوفيتش والمعارضة، حتى انسحب هؤلاء الوزراء. غير أن التقلب الدبلوماسي السريع لا يُجدي. فعلى غرار كيسنجر عام 1973 في الشرق الأوسط، كان ينبغي للسادة فابيوس وشتاينماير وسيكورسكي [73] التخييم في المنطقة، حتى لو اقتضى الأمر مضاعفة الرحلات المكوكية مع موسكو. ولم يكن يلزم أن تأخذ الإدارات المركزية الأوروبية بلامبالاةٍ نبذَ حشودِ ساحة "ميدان" لاتفاق الحل الوسط الذي عُقد بين الأحزاب السياسية المنتخبة بصورة منتظمة من طريق الاقتراع العام. ففي الأمد الطويل، كان الجندي يانوكوفيتش من دون شك سيئًا بالنسبة إلى أوكرانيا. لكن في الأمد القصير، كان من الضروري الإبقاء عليه في مكانه، ما دام يجسد وحده الجماهير الناطقة بالروسية في شرق البلاد. ولو كانت الدبلوماسية الغربية قد برهنت على مزيد من الثبات واليقظة، فلم تكن لتسمح قط، علاوة على ذلك، بتمرير القانون "الأثيم" للرادا ما بعد الثورية [74]، الذي ألغى الوضع القانوني الممنوح للغة الروسية بوصفها لغة رسمية ثانية في المناطق الشرقية من البلاد.

ولا يمكن إنكار أن الغربيين وأصدقاءهم الأوكرانيين قد سلّموا، في هذه الأزمة، ذرائع من ذهبٍ لبوتين لتدخّله الإنساني المزعوم.

وليس الطيش الغربي في أوكرانيا نتيجةً للنفوذ وعدم القدرة على تمييز الفوارق الطفيفة لدى مؤسسات الفكر والرأي (think tanks) الأميركية المؤيدة للديمقراطية فحسب، بل هو أيضًا نتيجة للضعف الحالي للاتحاد الأوروبي. فهذا الأخير هو أعظم إنجاز للدبلوماسية الغربية منذ الحرب العالمية الثانية. لكن، وعلى نحو غريب، لا يُفلح الغربيون في علاج المرض المزدوج الذي استحوذ على الاتحاد الأوروبي: شلل سيره العملي، والسخط المتزايد لدى مواطنيه.

**الانحدار المقلق للاتحاد الأوروبي**

منذ بداية هذا العقد، يغرق الاتحاد الأوروبي في أزمة حرجة. فهل هذا أمر لا يمكن تلافيه؟ الجواب بالنفي، لأنه إذا ما أخذنا مجالًا للنظر، ندرك أنه، على الرغم من كل الانتقادات التي يمكننا أن نوجهها إليه، فقد أوفى الاتحاد الأوروبي تمامًا بمهمته الأولى التي تمثلت في منع عودة الحرب إلى القارة العجوز. مع ذلك، ينبغي ألا نستهين بخيبة الأمل العميقة التي أدركت المواطنين الأوروبيين على مدى عشرين عامًا؛ فلم تفتأ تنهار الثقة التي يولونها مؤسسات بروكسل لحل مشاكلهم. وفي الانتخابات الأوروبية في 25 أيار / مايو 2014، جاءت الأحزاب المناهضة لأوروبا في المرتبة الأولى في فرنسا وبريطانيا والدنمارك. وثمة حاجة ملحة إلى وقف هذا المنحى الانحداري، إذا كنا نريد الحفاظ على أفضل بناء سياسي أُنجز في أوروبا منذ شارلمان.

ففي نهاية آذار / مارس 2013، وضعت **مجلة تايم** (*Time Magazine*)، وهي أحد أكثر المراقبين حيادًا وموضوعية، على غلافها المزيّن بصورة لكريستين لاغارد (Christine Lagarde)، هذا السؤال الذي تقشعر له الأبدان: "هل هذه المرأة قادرة على إنقاذ أوروبا؟". ومن الواضح أنه على الجانب الأميركي من المحيط الأطلسي، وقبل زمن طويل من الانتخابات الأوروبية في 25 أيار / مايو 2014، كانت التقديرات تشير إلى أن الاتحاد الأوروبي قد سقط إلى مرحلة تستوجب الإنقاذ، وأن المنقذ لم يكن موجودًا في بروكسل بل في واشنطن (حيث كانت السيدة لاغارد تدير صندوق النقد الدولي).

منذ أكثر من أربعين عامًا، كان رئيس الدبلوماسية الأميركية يتهكم: "أوروبا، حسنًا؛ لكن ما رقم الهاتف رجاءً؟". ولم يُحرَز أي تقدم للإجابة عن السؤال الذي طرحه هنري كيسنجر. فعندما تحاول أكبر أسبوعية في الولايات المتحدة استجواب أحد يُعبّر عن رؤية بسيطة ومتماسكة لمستقبل أوروبا، فهي لا تعرف من تخاطب في بروكسل. رئيس المجلس الأوروبي؟ أم رئيس اللجنة الأوروبية؟ أم رئيس منطقة اليورو؟ أم رئيس البرلمان؟ أم رئيس مجلس وزراء الاتحاد الأوروبي؟ أم الممثلة السامية للشؤون الخارجية؟ ومن ثم، وعلى اعتبار أن أيًّا من هذه الشخصيات ليست حقًّا معروفة، لا من سكان

الولايات المتحدة ولا من سكان أوروبا، فقد اختارت **مجلة تايم** مقاربة رئيسة كبار موظفي صندوق النقد الدولي.

وليست لدى أوروبا مشكلة رقم الهاتف فحسب، بل لديها أيضًا مشكلة الميكروفون. والحالة هذه أشد إزاء مواطنيها مما هي عليه إزاء الأجانب. ومن المحزن أنه في حالات الاضطراب الشديد التي اجتازتها الطائرة الأوروبية فوق البحر الأبيض المتوسط (الأزمات المالية لدول الجنوب)، لم يكن هناك ربّان واحد من بروكسل ليأخذ الميكروفون ويشرح للركاب، في آن واحد، الأخطاء المرتكَبة والإجراءات المتخذة لتحسين الملاحة [(75)].

هذا الصمت المطبق الذي يصم الآذان في الاتحاد الأوروبي هو نتيجة لاتفاقٍ غير مكتوب، جرى إقراره في سبعينيات القرن الماضي وثمانينياته، بين الحكومات واللجنة الأوروبية، تلك المؤسسة التي تملك حصريًّا المبادرة في إصدار التوجيهات؛ أي القوانين الأوروبية التي تمتلك الأسبقية على القانون الوطني. وقد منحت الدول الأعضاء السلطةَ للأوروقراطيين [(76)]، لكنها لم تمنحهم الكلمة: مبدأ الحقيقة، لا مبدأ اللذة [(77)]. وفي حين يتراقص الوزير الفرنسي المسؤول عن "الانتعاش الإنتاجي" أمام الكاميرات الوطنية، تُعالَج الملفات الصناعية المهمة في بروكسل (مثل إعادة هيكلة بنك دكسيا، الذي تتجاوز موازنته 500 مليار [يورو]). إن هذا الفصام المفروض على المواطنين [الأوروبيين] هو ما تَسبَّب في ازدياد التصويت الاحتجاجي في أوروبا (لفائدة حزب "الجبهة الوطنية" (FN) بفرنسا، و"حزب استقلال المملكة المتحدة" (UKIP) ببريطانيا، وما إلى ذلك).

وفي الولايات المتحدة، يُنفق الرئيس وقته ليشرح لناخبيه ما فعله، وما هو بصدد فعله، وماذا سوف يفعل. ويُنتقَد في بعض الأحيان، لكن الجميع يفهمه. ولا نجد شيئًا مثل هذا في بروكسل، حيث ينتج بَكَمُ المؤسسات - الذي أُعرّفه باعتباره عدم القدرة على الإدلاء برسالة سياسية واضحة - من تنافر الأصوات، ومن الثرثرة والهدر، ومن الإسهاب والحشو الحاذق، بقدر ما ينتج من الصمت. مَنْ، في بروكسل، شرح لنا [مثلًا] بوضوح أزمة قبرص وطريقة علاجها؟ من صمم لنا وجه عالم الغد؟ من أرشدنا إلى الخط الذي ينبغي اتّباعه في مواجهة التحديات القادمة من آسيا؟

ارتُكبت بالتأكيد أخطاء فادحة، كما في مؤتمر القمة [الأوروبية] غير الرسمية بنوردفيك (Noordwijk) (23 أيار / مايو 1997)، إذ تخلّى الرئيس شيراك والمستشار كول عن جعل توسيع الاتحاد [الأوروبي] رهينة التعميق المسبق للمؤسسات. بالتأكيد، منحُ هذه الأخيرة المزيد من التمثيل ومن النجاعة ليس مهمةً يسيرة ضمن مجموعة من ثمانية وعشرين بلدًا عضوًا. لكن هذا ليس سببًا للتثبيط، لشدة أهمية الرهانات.

ينبغي على وجه الخصوص أن يكون على رأس أوروبا رئيس قوي للمفوضية الأوروبية وذو شخصية ريادية، وقادر على مخاطبة شعوب أوروبا، ومسؤول عن أفعاله أمامها، وليس شخصًا باهتًا اختير من أجل إذعانه أمام "أنوات" (ego) القادة الكبار الألماني والفرنسي والإنكليزي.

ومن النفاق أن نتظاهر بأن أوروبا المؤسسية لم يكن لها سوى بُعدٍ تقني، في حين أن بُعدها السياسي واضح أمام العيان. وإن كانوا يودون البقاء في تاريخ البناء الأوروبي، فينبغي على القادة الأوروبيين الحاليين أن يتركوا وراءهم اتحادًا نقديًّا ومصرفيًّا وماليًّا قويًّا؛ اتحاد تقوده شخصية قادرة على كسب احترام الفاعلين الماليين في العالم بأسره وانضواء المواطنين الأوروبيين بوصفهم المفوِّضين النهائيين.

وإذا لم يفلح الغرب في أن يجد في داخله الموارد اللازمة للعلاج السريع لأفضل ابتكار أحدَثه - أي الاتحاد الأوروبي - فإنه محكوم في النهاية بالتفكك السياسي. ولا أحد في تاريخ البشرية قد جسّد العقل الغربي بقدر جان مونيه [78]. وإذا ترك الغربيون ابنهم الروحي يموت [أي الاتحاد الأوروبي] لعدم وجود المبادرة والشجاعة، فلا يأتوا عقب ذلك ليشتكوا، عزيزي ريجيس، من رؤية مقاصدهم الكونية تنبذها القوى العالمية الأخرى...

(57) استخدام النقل بالمعيّة (Covoiturage) هو استخدام أشخاص عدة السيارة الخصوصية نفسها للقيام بالرحلة نفسها، سواء لتخفيف الازدحام المروري أو للحد من التلوث أو لتقاسم تكاليف النقل. (المترجم) (58) مختبرات التصنيع (Fab labs) هي مكان مفتوح للعموم حيث توفّر جميع أنواع الأدوات، لا سيما آلات التحكم من طريق الحاسوب، من أجل تصميم أيّ شيء تقريبًا وإنجازه. السمة الرئيسة لمختبرات التصنيع هذه هي "الانفتاح"؛ لأنها منفتحة في آن على رجال الأعمال والمصممين والفنانين، وقراصنة المجال الرقمي، والطلاب من جميع المشارب، الذين يرغبون في الانتقال بسرعة كبيرة بين مراحل الإنتاج. وإن لم يكن ينبغي بالضرورة أن تكون مرتبطة بمعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، فمن الضروري بالنسبة إلى جميع مختبرات التصنيع احترام الميثاق الذي وضعه المعهد الأميركي لهذه المختبرات. (المترجم) (59) "فاندي غلوب" (Vendée Globe) سباق إبحار حول العالم للقوارب الأحادية الهيكل يمارَس على نحو منفرد، ومن دون توقف أو مساعدة. ويقام هذا السباق مرة كل أربع سنوات. (المترجم) (60) تمرد الملاكمين (Guerre des Boxers) انتفاضة جرت في الصين بين عامي 1899 و1901، وأثارتها جمعية سرية كان رمزها قبضة اليد المغلقة (ومن ثم تسمية الملاكمين). وقد جرى استخدام هذه الحركة، التي كانت تعارض في البداية الإصلاحات، والمستوطنين، والسلطة الإقطاعية التي كانت تحكم الصين، ضد المستوطنين الأجانب حصرًا. وانتهت بهزيمة الصين أمام دول الحلفاء الثماني مستهلّة - في أعقاب الحرب الصينية - اليابانية (1894 - 1895) التي خسرتها الصين أيضًا - مرحلةً حاسمة في الصراع داخل الصين في القرن التاسع عشر بين المحافظين والاستعماريين من جهة، والإصلاحيين والاستقلاليين من جهة أخرى، والذي انتهى بسقوط سلالة تشينغ في عام 1912 وإنشاء جمهورية الصين. (المترجم) (61) كانت نبوءة الكاتب هذه في محلها تمامًا، مع فارق بسيط هو أن سقوط كابول لم يستغرق سوى أيام قليلة وليس بضعة أشهر. فقد سقطت العاصمة الأفغانية في أيدي طالبان في 15 آب / أغسطس 2021، بضعة أيام فقط عقب بدء حكومتي الولايات المتحدة وبريطانيا رحيلًا سريعًا وفي حالة من الهلع عن أفغانستان. (المترجم) (62) "التحريرية الوحدوية" (Irrédentisme) مذهب سياسي نادى به الوطنيون الإيطاليون الذين طالبوا، عقب توحيد إيطاليا في القرن التاسع عشر، بضم المقاطعات التي يسكنها أبناء جنسهم ولغتهم (التي كانت يومذاك خاضعة للسيطرة الأجنبية). واستطرادًا، يُستخدم هذا المصطلح لتوصيف العقيدة القومية التي تدافع عن الحق التاريخي في إلحاق المناطق التي كانت تابعةً في الماضي بالدولة، أو تتقاسم معها خصائص عرقية أو لغوية. (المترجم) (63) يُعتبر جول فيري (Jules Ferry)، وزير التعليم العام ولاحقًا وزير الخارجية الفرنسي، أحد أبرز المدافعين عن أيديولوجيا الاستعمار "باعتباره واجبًا حضاريًّا لفرنسا"، باسم حق "الأعراق السامية" على "الأعراق المنحطة". (المترجم) (64) شارل ساغان (Charles Saganne) ملازم فرنسي يرى الفرنسيون "مجازفاته" في الصحراء الكبرى الأفريقية بوصفها رمزًا إلى "البطل في البلاد النائية"، نوعًا ما على طريقة لورنس العرب. (المترجم) (65) النخبة المميزة (Nomenklatura) مصطلح روسي يشير إلى نخبة الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي وفي دول الكتلة الشيوعية سابقًا، كانت تمتلك السلطة وتتحكم بكل شيء تقريبًا، ويمكن من ثم تقريبها من "المؤسسة الحاكمة" (Establishment) في "الغرب"، غير البعيدة عنها في الاستئثار بالسلطة السياسية والثروة الاقتصادية والسيطرة على وسائل الإعلام، وأيضًا من ضروب الأوليغارشيات التي وسمت البلدان العربية غداة الاستقلالات. (المترجم) (66) التحالف الفرنسي - الروسي حلف عسكري بين الجمهورية الفرنسية الثالثة والإمبراطورية الروسية من عام 1892 إلى عام 1917. وكان كل من الرئيس الفرنسي حينذاك سادي كارنو (Sadi Carnot) وقيصر روسيا السابع عشر ألكسندر الثالث الطرف الفاعل في هذا التحالف. (المترجم) (67) "على افتراض كل العوامل الأخرى ثابتة" (toutes choses égales par ailleurs / ceteris paribus) عبارة لاتينية تُستخدم في سياق محدَّد، عند دراسة تغيّر عاملٍ متغير واحد (explanandum)، في حين يجري افتراض بقاء العوامل الأخرى كلها ثابتة. (المترجم) (68) يندرج هذا التقسيم الكلاسيكي بين "دار الإسلام" و"دار الحرب" ضمن منطق حالة الحرب المتواصلة في عصور لم تعرف القانون الدولي ولا النظام الدولي، ولم يعد محسومًا بصفة العموم حتى لدى العديد من تيارات الإسلام السياسي والحركات الإسلامية المعاصرة. (المترجم) (69) لا يزال إلى اليوم العديد من المثقفين الغربيين يفضّلون تسمية "الخليج الفارسي" للدلالة على "الخليج العربي". (المترجم) (70) واضح ان الكاتب يكتب من زاوية نظر سياسية أيديولوجية محددة، وهو يعبر بلغته عن وجهة نظر يوجد في الكتاب نقيض لها. (المترجم) (71) مُسكوفي (Moscovie) هو الاسم اللاتيني لمدينة موسكو ومنطقتها، وهو الاسم التاريخي لروسيا الذي كان يستخدمه الأوروبيون في القرنين

السادس عشر والسابع عشر. (المترجم) (72) يتعلق الأمر بمبدأ مونرو (Doctrine de Monroe)، الذي أعلنه الرئيس الأميركي جيمس مونرو في رسالة سلّمها إلى الكونغرس الأميركي في عام 1823. وقد وسم هذا المبدأ السياسةَ الخارجية الأميركية طوال القرنين التاسع عشر والعشرين، وهو يشجب كل تدخل أوروبي في شؤون "الأميركتين"، ويؤيد استقلال كل دول نصف الكرة الغربي إزاء التدخل الأوروبي. (المترجم) (73) يتعلق الأمر بوزراء الخارجية الفرنسي والألماني والبولندي (Fabius, Steinmeier, Sikorski). (المترجم) (74) الرادا (Rada) هو البرلمان الأحادي المجلس في أوكرانيا. (المترجم) (75) يُحيل الكاتب هنا إلى فيلم هوليوودي شهير هو "Airplane!" الذي يحمل في نسخته الفرنسية هذا العنوان: "هل يوجد ربان في الطائرة؟" ("Y a - t - il un pilote dans l'avion?"). (المترجم) (76) أوروقراطي (Eurocrate) لفظة مُرخّمة من "أوروبي" و"بيروقراطي"، جرى استحداثها للإشارة بطريقة ازدرائية إلى تضخم عدد موظفي الاتحاد الأوروبي وبيروقراطيتهم، من دون نتائج ملموسة وناجعة على أرض الواقع. (المترجم) (77) "مبدأ الحقيقة" مفهوم تحليلي نفسي فرويدي يرغم الشخص على إرجاء الإرضاء الفوري بسبب عقبات الحقيقة. يشير مبدأ الواقع أساسًا إلى القدرة على الخروج من الهلوسة والحلم والخيال، والتي ينتصر فيها مبدأ اللذة، والاعتراف بوجود واقعٍ غير مُرضٍ أو متطابق مع تمثّلاته المثالية. (المترجم) (78) جان مونيه (Jean Monnet) أحد أبرز مؤسسي الاتحاد الأوروبي، وهو مناصر للنزعة الأطلسية، والتجارة الحرة، وذوبان الدول القومية لمصلحة أوروبا فدرالية على غرار الولايات المتحدة. (المترجم)

# رسالة من ريجيس دوبريه إلى رينو جيرار

5 حزيران / يونيو 2014

عزيزي رينو،

"دعونا ننتقل إلى الماضي، سيكون ذلك خطوة إلى الأمام"، كما كان يقول جوزيبي فيردي.

في عام 1935، نُشر في باريس "بيان للدفاع عن الغرب" (Manifeste pour la défense de l'Occident)، وقّعه فرسان بيض بواسل (نصف الأكاديمية الفرنسية). دعم هؤلاء الفرسان في بيانهم العدوان الإيطالي على إثيوبيا، باعتبارها "مزيجًا من القبائل الجاهلة"، وباسم سموّ قيمنا [الغربية]، فإن لنا حقًّا مشروعًا الدول "المتخلفة". [واليوم] غيرت هذه العنصرية الحضارية مفرداتها. فالروح الصليبية أضحت تتحدث الآن، بنبل أكبر، عن حقوق الإنسان وحماية السكان. وعندما تعتلي الكلمات الرنانة المشهد، ويصبح قارعو نواقيس الخطر في "الواجهة"، يمكننا أن نكون على يقين من أن حرب غزو جارية على قدم وساق، مع عين على سوق جديدة، وعملية تضليل إعلامي جسيمة في الحصيلة. ونراهن على أن هونوريوس وأركاديوس كانت ستصيبهما الدهشة من أن تقسيم الإمبراطورية الرومانية الذي باشراه في عام 395م [79] سيصل في زمن لاحق لتبرير حق الأقوى في النطق بالحق، خصوصًا أنه في عصرهم، ولما يقرب من ألف عام، كان البربري في الغرب وكان المتحضر في الشرق، جهة بيزنطة. وكان جستنيان، مؤلّف المدوّنة القانونية المؤسِّسة، من الشرق، وليس من الغرب.

صحيح أنه يوجد غرب آخر، غير هذا النادي الأوليغارشي، الذي ما عاد يدّعي زعيمه [الولايات المتحدة] علنًا مَلَكيةً كونية، لكنه لا يزال يحافظ على القواعد والقوات في خمس قارات؛ وذلك بانتهاكه، في ما يخصه، القوانين والمواثيق الدولية التي يوصي الآخرين الأجانب بالامتثال الصارم لها. إنه تأنيب ضمير الأول الذي ضاعف دائمًا الآخر في الخفاء. إنه غرب مونتاين، وغوته، وليفي ستروس، وزئيف ستيرنهيل (Zeev Sternhell)، وإدوارد سنودن؛ هؤلاء الغرباء المنبوذون من الداخل. والدليل على ذلك أنه جاء الجواب عن بيان الأكاديميين في الفترة نفسها ببيان ثان، وقّعه مورياك، ومونييه (Emmanuel Mounier)، وماريتان (Jacques Maritain)، مُفنِّدين الغطرسة العمياء للبيان الأول.

لكن دعونا لا نُصَبْ بالإحباط ونيأس من الأمر. فـ "يانوس ذو الرأسين" (Janus bifrons)، وهو العنصر الثابت، يجعل من كلمة الغرب هذه التي تحمل أوجهًا عدة مفهومًا "متوافقًا مع التقليد" [80] بقدر ما هو مفكَّر فيه على نحو منحرف ودائمًا بسوء نية، ما دام هذا المفهوم ليس ما هو عليه، وهو غير ما هو عليه. وحين تواجهه بجلاديه المتخصصين بالتعذيب، أو بطائراته من دون طيار، أو بوكالته للأمن القومي (NSA)، أو بغبائه الاستراتيجي الفادح، حينئذ تنتصب عُصبة متزلفيه، واليد على القلب، لتحدثك بشأن الحرية، وبشأن عام 1789، وبشأن التوتاليتارية وحقوق الإنسان غير القابلة للانتقاص. إنها ليست على خطأ، وهذا المكر ينطوي على حقيقة. فهناك ازدواجية بين الاستخدام السياسي والأيديولوجي والاستخدام التاريخي غير المتحيز لمصلحة مصطلحٍ جغرافي. ازدواجية بين التحالف المقدس للزمن الحاضر - وهو هيئة نخبوية متغلبة وواثقة من نفسها - والنتاج الإعجازي المولَّد عبر القرون، الذي ليس ضربًا من الوهم الخدّاع، والذي يستحق جهدًا وتضحيات للدفاع عنه إذا لزم الأمر. وفضلًا عن ذلك، قد يحدث أن يلقِّن ضمير نافذ البصيرة درسًا للقوة المحض؛ مثل شاعرنا لامارتين وهو يعود، في نهاية حياته، على ماضيه الوزاري مستهزئًا من "العمليات الخارجية" الكارثية التي كان قد وافق عليها: "كنت أُعلن أنني لا أدري أيّ حق حضاري مزعوم باعتباره حقًّا مطلقًا يبيح لنا التهجم على القوميات القائمة، من دون تبريرها لا أمام الله ولا أمام الناس، بحيث إنه سيكون كافيًا بالنسبة إلى شعب أن يؤمن بأنه أكثر تحضرًا من جيرانه لإعلان الحرب عليهم وتنحيتهم عن مكانهم على وجه البسيطة". ومن مصلحة المحافظين الجدد إعادة قراءة مؤلِّف قصيدة "البحيرة": "وهكذا، دومًا مدفوعين إلى سواحل جديدة..." [81]؛ وهم مصدر انطلاق الكوارث - العراق، وأفغانستان، وليبيا، وجمهورية أفريقيا الوسطى، وسواها - وهم وُعّاظنا المعتمَدون الذين يودون صنع سعادة المعوزين بضربات الصواريخ الموجَّهة من دون معرفة أي شيء عن تاريخهم وجغرافيتهم، وعن لغتهم ودينهم وأعرافهم.

لننسَ هؤلاء النعّارين ذوي الذاكرة القصيرة، ولنعد إلى موضوعنا.

في حديث توجهت به في بكين، في عام 2012، إلى دبلوماسيين وخبراء استراتيجيين ومفكرين صينيين يحملهم نجاحهم الاقتصادي المبهر إلى نوع من التعالي والاستنكاف على "غربٍ" في خضم الأزمة، الغرب (the West)، أردت أن أقترح عليهم أن مسألة التصرف في شيء قبل امتلاكه محفوفة حقًّا بالمخاطر، ومثيرة للاكتئاب نوعًا ما، لكنها ذات قوة وصلابة وصعبة المراس. وبحديثي إلى أناس جديين، على دراية بأن العلاقات الدولية هي في المقام الأول حقل القوة، اقتصرت على رسم الخطوط العريضة لميزان قوى موضوعي في العالم كما هو، وليس كما نود أن يكون. لم يكن قصدي، عزيزي

رينو، إجراء فحص إشعاعي للنبوغ الغربي، كان من شأنه أن يقودني إلى الاحتفاء بفخرٍ بنجاح أنثروبولوجي خارق للعادة، ناتجٍ من ترسب والتحام عريقين في القدم على نحو خاص، وفريدين من نوعهما، للحس الإغريقي للكونية، وللقانون الروماني، وللشخص المسيحي، ولروح التمرد والعصيان في عصر التنوير. ولم يكن قصدي أيضًا - استعمال الأنا في هذا المجال مسألة بغيضة - الإسرارَ إليهم بالتجارب والتقلبات النفسية الشخصية. كان الأمر يتعلق في المقام الأول بتسليط الضوء على الهيكلة السياسية - العسكرية للإطار الشامل الشبحي - بدءًا بالتذكير برقم هاتفه، أي رقم هاتف البيت الأبيض - ثم بجرد قائمة مَواطِن القوة والضعف في درعه الواقي. يتعلق الأمر إذًا بعملية جرد براغماتية؛ لا أكثر ولا أقل.

وإذا كان لي أن أتحدث بضمير المتكلم، واضعًا على جنبٍ كل كياسة وحياء، فسأعترف أني ظللت طويلًا آمل أنه قد يوجد مجال، في هذه اللحظة من التاريخ التي تبدو في أعيننا معتمة وانكفائية نوعًا ما، يضمُّ غربَين، مع [تفضيل] وجود أوروبا - الفاعل الزمني والروحي الأكثر شرعيةً في هذا الدور - لتجسيد أفضل هذين الغربَين، وهو الغرب الوحيد الجدير بالاهتمام. وقد بالغت في السذاجة إلى حد الاعتقاد بأن بلد جوريس (Jean Jaurès) وديغول ينبغي ويمكن أن يكون بطلًا لهذا الغرب. وهذا الحلم الجميل هو ميت الآن. فقد أطلق عليه رئيس نصفُ غالي - نصف أميركي، هو السيد ساركوزي، رصاصة الرحمة بتنسيقه عودتنا إلى "الأسرة الغربية"، كما لو كانت إلى كانوسا [(82)]، وهي في هذه الحالة عودتنا إلى القيادة المندمجة لحلف شمال الأطلسي. وقد مثَّل هذا الإذعان العَرَضي ولكن ذو الدلالة الرمزية - الذي أيده خَلَفه وشبيهه "الاشتراكي" [فرانسوا هولاند] والابتسامة تعلو محيّاه [(83)] - الذروةَ الدبلوماسية لعملية الاستعمار الناعم للنفوس وللكلمات، ولاستلاب سياسيينا المحليين ومؤطّري ضمائرنا الرسميين. ويجري اعتبار النزعة الغربية الضيقة الأفق والمحتدمة لدى صحافيينا وخبرائنا كما لو كانت صوت العقل والحكمة. إن هذه النزعة تشل كل إمكانية للتريث والنظر في الأمور بتأنٍّ في هذا المجال كما في مجالات أخرى. وحدهم من هم على شاكلة دون كيخوتي [دون كيشوت] لا يزال باستطاعتهم الطموح إلى إعادة منح مضمون متسق للغرب الموسوم بالشجاعة المقترِنة بحسٍّ حسن التقدير وبالتبصر.

ولن يسعنا الاعتماد على الوحدة العسكرية الجبانة لحماية أجنحة الإمبراطورية الأوروبية - الأطلسية مثلما أصبح الاتحاد الأوروبي ذو الثماني وعشرين دولة، الذي يجري استتباعه وهو ضاحك، وابتزازه وهو ممتن، والتجسس عليه وهو مسامِح من دون ضغينة، وعما قريب تضليله بمخاتلة عبر أطلسية، و[هو] مخدوع وسعيد بذلك دومًا، لبلورة أوروبا ذات صبغة أوروبية كنا لا نزال نعتقد أنها ممكنة في ستينيات القرن الماضي، وحيث كان يمكن

شيئًا من قبيل محور باريس - برلين - موسكو أن يتعامل، يومًا ما، على قدم المساواة مع واشنطن كما مع بكين.

أما الآن، فإن "الشراكة عبر الأطلسية" تسير على الطريق الصحيح، وتهزم "أوروبا" الحيلُ والخدعُ أوروبا العميقة. وبعد أن كانت أوروبا، مدفوعةً في أعقاب الحرب [العالمية الثانية] بأفضل النيات حيال العالم، في مأمنٍ نالته عبر الردع النووي وتوازن الكتلتين، سرعان ما أصبح هذا المشروع الجميل رهينة لفكرة ساذجة: أن محكمةً وسوقًا حرة تستطيعان صنع شعب، كما تستطيع عملة موحَّدة صنع تفاعلٍ تضامني، وكما تستطيع مبادئُ توجيهية صنع شعورٍ بالانتماء. ومن ثم خرج إلى حيز الوجود وضعٌ شذر مذر حيث تسود اللغة الإنكليزية؛ وضع موقن تمامًا بقوى السوق التي نراها تُخضِع من جديد المجالات الوطنية للنظام الإقطاعي، واضعة السلطات العمومية، أو ما تبقّى منها، تحت جناح إمبراطوريات مالية خاصة وجماعات ضغطٍ ضارية. والساعة الرخوة [84] الكافكية [85] صارت تنتمي إلى ماضينا (اجتماع مائدة مستديرة في بروكسل، في "مجلس أوروبا"، 24 لغة، و32 متحدثًا، 3 دقائق لكلٍّ منهم، اجتماع من أجل لا شيء)، وهي تتداول لمدة ستة أشهر من أجل إرسال ألف رجل إلى مالي، حيث أضحى كل عضو يمتلك هامشًا أقل من الهامش الذي تمتلكه ولاية نبراسكا أو ولاية أيداهو في الولايات المتحدة الأميركية. وحدها ألمانيا تحتفظ، مع حلفائها من "أوروبا الوسطى" (Mitteleuropa)، بقدرة على اتخاذ القرار. ولم تفتأ تلك الفكرة الجيدة المزيَّفة لجان مونيه تُسلم الروح؛ أنه يمكننا صنع شعب من خلال المعاهدات، وصنع ذاكرة مشتركة من خلال العملة الموحَّدة. والسؤال الوحيد الذي يطرح نفسه، في هذا الاتحاد الأوروبي من دون أوروبيين، هو معرفة إن كان بإمكان فكرةِ كونفدراليةِ هيمنةِ الإقطاع، في إطار الترابط العام للأمم، البقاءُ في قيد الحياة غدًا في مواجهة تصدُّع آلةٍ للتجريد من السلاح، والتجريد من المسؤولية، والتجريد من الصناعة، والتقطيع إلى أوصال، واستئصال الدماغ [86]. فمن خلال التخلي عن وسائل عمل محدودة بالتأكيد، لكن كانت لها [على الأقل] مزية الوجود، من أجل دبلوماسيةٍ ودفاعٍ لن يمكن للاواقعيتهما سوى أن تزيد مع توسع الدائرة [أي دائرة الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي] (على اعتبار أنه قد تبيَّن أن أوروبا الشرقية، لأسباب مفهومة جيدًا نظرًا إلى تاريخها وجغرافيتها، هي أميركا الشرقية)، من أجل ذلك كله، تخلّت فرنسا عن ميزة حقيقية من أجل فائدة وهمية. وفي ظل هذه التبعية غير المقنّعة على نحو جيد ("حلفاء، لا مصطفِّين")، والتي تُمارِس الأخلاقية وفقًا للظروف وعلى نحو تعسفي، والتي تستبدل الوضعية [القائمة] بوضع مسبق وتستبدل الخط الواضح والصريح بمِلاحة ساحلية أينما ساقتها الريح، ستظل "الافتتاحيات الواعظة" (éditohomélie) لجريدتين أو ثلاث يقال عنها إنها مرجعية تزن دائمًا في الميزان أكثر من برقيةٍ

طويلة ومسهبة بالمعلومات لسفيرنا في المكان عينه. وأخشى أن تَطلّعك إلى مباشرة إعادة التسلح الأخلاقي لهذه الكتلة الفرعية المصنوعة من مادة هلامية عبر حلول ترقيعية وأمنيات مستحيلة التحقق - وهو ما يبدو أنك تسعى للقيام به عزيزي رينو بغض النظر عن أن أوروبا هذه الساذجة والمندفعة بتهور ليست هي الحل وإنما هي المشكلة - ليس إلا رغبة في تحويل طريق مسدود إلى مخرَج طوارئ.

وكنتيجة لانحراف قاطرة بروكسل، لم يعد الأوروبيون وإنما "الغربيون" هم من يعارضون فرنسا التي جرى الانتقاص من شأنها إلى وضع مساعد [ملحَق]، كما في زمن الخضوع في عهد الجمهورية الرابعة [1946 - 1958]. وبظهور موسكو من جديد أمامه (وهي بمنزلة روما الثالثة [87]، ومن حيث إن هؤلاء الغربيين يفتقرون إلى أي ثقافة تاريخية، وإن موسكو ليست من دون أي وجهِ شبهٍ بروما الثانية، فإنهم لا يفهمون منها البتة)، ها هو "غرب" "الدحر" [88] يُعاود امتطاء صهوة الحصان. إنه ليس غربَ عبّاري الحدود والوسطاء، بناة العتبات والجسور، ذاك الغرب الذي عرف، من القديس أغسطينوس حتى سيمون فايل، كيف يتفادى الازدواجية المانوية أبيض - أسود: الأشرار (bad guys) والأخيار (good guys). إنه ليس ذلك الغرب حامل الفكرة التحريرية للمواطنة (ما وراء القبائل والجماعات الأهلية)، وللعَلمانية (امتناع الدولة، مع حرية الإيمان أو عدم الإيمان)، والمدرك أن حريةً من دون مساواة وإخاء إنما تخدم مصلحة المحتالين والمضاربين، والذي تعلّم في نهاية المطاف، لمصلحته الكبرى ولمصلحة الآخرين، أنه لم يكن وحده في العالم؛ بل غرب أبوي ونرجسي، نصّب نفسه ربانًا لسفينة الإنسانية، ومكلَّفًا، من طرف نفسه، بإعادة التوازن إلى المركب؛ إنه بعبع لا يجازي وإنما "يعاقب" (كذا)؛ إنه عالَمٌ أول لا يحاور العالم الثالث - ولا العالم الرابع - وإنما يُناجي نفسه، ويُذل كل من لا يتكلم لغته؛ إنه زارع للفوضى والفتنة فيما يعتقد أنه صانع للمطر، ويهزأ، بمجرد أن يجد في ذلك مصلحته، بالمبادئ التي يدّعيها للاستعراض أمام الآخرين. لقد فات الأوان، على ما يبدو لي، لكي نمنح هذا الشبحَ الجميل، ذا الأيدي الملطخة بالدماء، وجهًا خلابًا أكثر من وجه ديمقراطية كبيرة ذات وطنيةٍ فائقةٍ وإمبراطوريةٍ، موطدة بإحكام عبر دينها القائم في آن واحد على الكتاب المقدس والقومية، والحريصة قبل كل شيء على سيادتها (عبر الحد بقدر المستطاع من سيادة حلفائها)، وحيث دخل الدولار (لا مال، إذًا لا فرصة أن تصبح منتخَبًا) في شراكة مع الله (لا آب أزلي، إذًا لا من "بيان القدر")، وحيث تسود عقوبة الإعدام.

لنأمل في المستقبل أن يظل أقل الممكن من هذا المنافق الواعظ المانح للدروس، وأن يمنح - إن كان لا يزال ثمة أوروبيون للقيام بذلك - حظوظه لغربٍ يمكن أن نحلم به، حيث تكف حرية الأفراد وسيادة الشعوب عن

التداخل بعضها مع بعض. وبانتظار ذلك، لنتوقف عن جعل ثقافة كبيرة ومرغوب فيها ورقة التوت التي تستر إرادة للهيمنة قصيرة النظر بقدر ما هي معتوهة.

أشك في أن تشاركني وجهة النظر هذه، لكنها وجهة نظري، ولن أحيد عنها أبدًا. إنها ليست وجهة نظرٍ من تلك التي تدفع إلى التدخل في الصحف، أو حتى إلى قراءتها؛ وهذا أفضل. وقد دفعتني وجهة النظر هذه إلى فتح صفحة جديدة من أجل هموم أخرى؛ الأدب، والسينما، وأحلام اليقظة، نشاطات قطعًا غير معاصرة لكنها أكثر إفعامًا إلى أبعد حد بالحيوية؛ فلكل منا طوق خلاصه الأخير. ألف اعتذار.

**ريجيس دوبريه**

(79) بوفاة الإمبراطور الروماني ثيودوسيوس الأول في عام 395م (وهو آخر إمبراطور للإمبراطورية الرومانية الموحّدة)، أصبح ابنه فلافيوس هونوريوس إمبراطورًا للقسم الغربي من الإمبراطورية (عاصمتها ميلانو)، وأخوه الأكبر، فلافيوس أركاديوس إمبراطورًا على القسم الشرقي (عاصمتها القسطنطينية). (المترجم) (80) التوافق مع التقليد (bien - pensance) مفهوم يعني حرفيًّا "التفكير بشكل صحيح"، بحسب القوانين والأعراف (الدينية والاجتماعية والسياسية) السائدة في النظام القائم، ومن ثم سلوك "التماثل الاجتماعي" (conformisme). ويحمل هذا المفهوم في الغالب حمولة قدحية تفيد الطابع المحافظ الرجعي. (المترجم) (81) "البحيرة" (Le Lac) هي إحدى القصائد الأكثر شهرة للشاعر الفرنسي لامارتين، في ديوانه الشعري **تأملات شعرية** (*Méditations poétiques*) الذي صدر في عام 1820. ويُشبّه الكاتب هنا اندفاعة المحافظين الجدد العشواء بـ "الهروب إلى الأمام" عند لامارتين: "دومًا مدفوعين إلى سواحل جديدة... في الليل الأبدي مُنجرفين دون عودة". (المترجم) (82) كانوسا (Canossa) قصر في إيطاليا حيث ذهب في عام 1077م الملك هنري الرابع، الإمبراطور الروماني المقدس، لطلب الغفران من البابا غريغوريوس السابع الذي كان قد حرمه كنسيًّا، والذي تركه ينتظر أمام الباب، لإذلاله، ثلاثة أيام كاملة. ومنذ ذلك الحين، بدأت كانوسا ترمز إلى الاستسلام غير المشروط، والاستسلام المهين، لا سيما منذ عام 1872، عندما دخل المستشار بسمارك في صراع مع البابا بيوس التاسع، ختمه بقوله: "لن نذهب إلى كانوسا". (المترجم) (83) ينبغي أن نشير هنا إلى أنه في أعقاب قرار الجنرال ديغول انسحاب فرنسا من القيادة المندمجة لحلف شمال الأطلسي في عام 1966، اكتست إعادة إدماج فرنسا في الحلف (والتي أصبحت سارية المفعول في نيسان / أبريل 2009) دلالة أيديولوجية إثر تشبيه الرئيس الفرنسي السابق نيكولا ساركوزي لها بـ "العودة إلى الأسرة الغربية". وفي حين هاجم الرئيس الفرنسي اللاحق فرانسوا هولاند نيكولا ساركوزي قبل عام 2012 بشأن هذه المسألة باسم الاستقلالية الفرنسية واستقلالية الدفاع الأوروبي، تراجع عن ذلك عقب انتخابه عام 2012 رئيسًا للجمهورية، وهو ما يثلبه الكاتب هنا. (المترجم) (84) لوحة "إصرار الذاكرة" (La Persistance de la mémoire)، المعروفة أكثر تحت إسم "الساعات الرخوة" (Les Montres molles)، هي اللوحة الأكثر شهرة للرسام الإسباني العالمي سلفادور دالي، أحد أعلام المدرسة السوريالية. يظهر في هذه اللوحة عدد من الساعات التي تشير إلى تلاشي الوقت في مقابل إصرار الذاكرة، وهي تبدو مرتخية وفي حالة مائعة، في إشارة إلى تمييع الوقت وتذويب الساعات بتشويه أشكالها الهندسية الفجة التي تُفقِد الأشياء حيويتها وتمتص منها الروح، في ما يشبه تلك الحركة المتراخية البعيدة عن الميدان التي تأخذ من الثورة روحها الحماسية وتطفئها. (المترجم) (85) في إشارة إلى أجواء روايات فرانتس كافكا: كل ما هو مضطهَد، ولامعقول، ورهيب، وسوريالي، ويدفع إلى أبعد درجات العبثية والسخف والاستهزاء من الحياة العصرية. (المترجم) (86) يحيل الكاتب هنا على القوى "الفاوستية" (قوى السوق الحرة غير المؤطّرة، واللوبيات، والتكتلات المالية العالمية، وسواها) التي يعتبر أنها تتهدد الاتحاد الأوروبي والفكرة الأوروبية. (المترجم) (87) يلخص تعبير "موسكو، روما الثالثة" نظريةً سياسية ترى أن موسكو، بعد أن أصبحت عاصمة للدولة المستقلة الأرثوذكسية الوحيدة، قد مُنحت مهمة حماية العقيدة الأرثوذكسية وتقاليد روما الإمبراطورية (روما الأولى) عقب سقوط القسطنطينية (روما الثانية) في عام 1453. وقد بدأت هذه النظرية في الانتشار منذ منتصف القرن الخامس عشر، قبل أن تجد تعبيرها النهائي في القرن التالي، مبرِّرة السلطة المطلقة للحاكم وجاعلة منه بمعية البطريرك حامي العقيدة الأرثوذكسية. (المترجم) (88) سياسة "الدحر" (Rollback) هي عقيدة وضعها في عام 1952 الرئيس الأميركي دوايت أيزنهاور ووزير خارجيته للشؤون الخارجية جون فوستر دالس (John Foster Dulles)، وهي تهدف إلى دحر الشيوعية، وليس احتواء تقدمها فحسب. (المترجم)

# رسالة من رينو جيرار إلى ريجيس دوبريه

2 أيلول / سبتمبر 2014

عزيزي ريجيس،

على غرارك، أنا أيضًا أحب حبًّا حنونًا ثقافتنا الكلاسيكية. وعلى غرارك، أنا أيضًا على استعداد للذهاب إلى حد "التضحية"، من أجل حماية ما تسميه أنت بأسلوب جميل "الغرب الثقافي الضارب في عمق التاريخ". بيد أنه لا يسعني بالتأكيد أن أتبعك في هذا الحط اللاذع من قدر "الغرب السياسي في الزمن الحاضر"، والذي تُعرّفه أنت بأنه "هيئة نخبوية، متغلبة وواثقة من نفسها". وهذا، لثلاثة أسباب.

أولًا، يبدو أنك تنسى أن هذه "الهيئة" لديها ميزة واحدة على الأقل: أنها تقبل النقاش في داخلها؛ وهذا الكتاب الصغير هو أيضًا دليل حي على ذلك. فيمكن أن يوجد عندنا، في هذا الغرب السياسي في القرن الحادي والعشرين، بعض التحيزات، والتحاملات، والمواقف المسبقة، والكليشيهات، والأفكار السائدة، وعقلية القطيع، لكن لا يجري أبدًا تثبيط النقاش السجالي، ولا تشنيعه. وطوال حياتي طالبًا ثم صحافيًّا، لم أعتقد يومًا أن الحقيقة، بالنسبة إليّ، ستخرج من دماغ أستاذٍ ما، أو مرشدٍ روحي، أو حزب، أو مُشغِّل. وخلال ممارستي لمهنة الملاحظ والمحلل للتاريخ الآني، شعرت دائمًا أن الحقيقة كانت وليدة الجدلية، وأنها يمكنها في أغلب الأحيان أن تنبثق فجأة، وكأنها رؤيا، لكن دائمًا في أعقاب نقاش سجالي طويل. ويبدو لي أنه على مدى العقود الثلاثة الماضية، لم يفتأ قبول المجتمعات الغربية لفوائد النقاش الفكري الحر والمتنوع يحرز تقدمًا. بالطبع، كان هناك اختراع تلفزيون الواقع قبل أن يليه تدفّق موجته العارمة، لكنّ هذه الشجرة الوحشية ينبغي ألا تخفي غابة المبادرات الفكرية الموفقة في المجال الإعلامي. وإذا منحتَ نفسك عناء التنقل بين برامج قنوات التلفزيون أو الراديو المنشأة في الغرب، ستفاجئك كمية المناقشات الفكرية الرفيعة المستوى التي تنظّمها هذه القنوات. وجميع الصحف اليوم لديها زاوية "مناظرات"، وهو ما لم يكن عليه الحال في ربيع 1968؛ إذ كان، على الرغم من ذلك، على ما يبدو، "ممنوعٌ المنع". وعلى خلاف ما يبدو أنه اعتقادك، يوجد اليوم المزيد من النقاشات ذات الجودة مما كان عليه الحال في شبابك، الموسوم بصراع الأيديولوجيات الكبرى.

ثانيًا، أنت تقول، في ما يشبه العتاب، إن الغرب السياسي هو من صنع نخبة. في التاريخ البشري، كل المجتمعات كانت دائمًا تقودها نخب ضيقة. ففي يونان بريكليس التي تُعبّر عن حنينك إليها، هل تعتقد أنه لم تكن توجد في واقع الأمر نخبة في مقاليد الحكم؟ الأمر الذي يبدو لي أنه يُوصِّف الغرب على وجه التحديد هو أن نخبته الحاكمة هي أوسع بكثير، وأكثر تغيرًا، وأكثر انفتاحًا من الشرق. فالصين تحكمها فئة طبقية اندماجية صغيرة جدًّا من "الأمراء الحمر". وفي روسيا، من يحكم هو القيصر في الكرملين، محاطًا بأوليغارشيات أدت له الولاء، من دون استشارة أحد. وفي العديد من البلدان العربية (الجزائر، سورية، مصر)، القيادةُ العسكرية العليا هي من يحكم. أما بالنسبة إلى ممالك النفط في الخليج الفارسي [الخليج العربي]، فإن الأسر "الملكية" التي تحكم هي نفسها التي نصّبتها إنكلترا خلال المرحلة الاستعمارية.

أهو الغرب "الغالب والواثق من نفسه"؟ إن التاريخ يتألف من إمبراطوريات تسعى للسيطرة على العالم، إما بالقوة أو من طريق إغراءِ ثقافة. لكن الغرب هو أقل "هيمنة" بكثير مما كان عليه قبل مئة عام، عندما كان اثنان من كبار الدبلوماسيين، فرانسوا جورج بيكو ومارك سايكس، يتقاسمان الشرق الأوسط عبر رسم خطوط بأقلام الرصاص الملونة، لحساب عاصمتيهما على التوالي، باريس ولندن. فالغرب أقل "هيمنة" بكثير مما كان عليه في بداية القرن العشرين، لأنه هو نفسه قطع، طواعية، غصن هيمنته. ألم يدرِّس باستمرار، في جامعاته، ألمعَ عناصر الشعوب المستعمَرة، مبادئ المساواة في الحقوق بالنسبة إلى جميع البشر، وابتداء من عام 1919، مبدأ ولسون لـ "حق الشعوب في تقرير مصيرها"؟ أهو واثق من نفسه؟ لكن، عزيزي ريجيس، إنه العكس تمامًا! فالغرب أصبح غير واثق من نفسه إلى حد أنه يعرض في بعض الأحيان وجهًا ضبابيًّا إلى حد ما. إنه أبعد من أن يكون واثقًا من نفسه، فهو لم يعد يعرف جيدًا ما هي قيمه. حتى تاريخه، أصبح صعبًا عليه أن يعتد به! أقصد بطبيعة الحال مسخرة هذا الاتحاد الأوروبي الذي لم يستطع، في مشروع دستوره، أن يشير إلى الجذور المسيحية للقارة، على الرغم من أن هذا الأمر واضح وضوح الشمس. في هذا الكتاب الصغير، عددتُ النماذج حيث بدا الغرب السياسي، في منعطف القرنين العشرين والحادي والعشرين، طائشًا، أو حتى عديم المسؤولية تجاه الشعوب الأخرى على هذا الكوكب الأرضي. لكني أعتقد أن هذا العنف الغربي، الذي رأيناه قيد العمل في العراق على سبيل المثال، هو أكثر دلالة على عيب في الذكاء ونقص في الرسوخ الأخلاقي للغرب، أي إنه دلالة على ضعف، أكثر منه على قوة منبسطة.

أخيرًا، أرى أن رؤيتك للتكامل الأوروبي جد اختزالية. بطبيعة الحال إن محكمةً وسوقًا داخلية لن تصنعا أبدًا شعبًا أوروبيًّا! فهذا الأخير ليس له وجود. والفنلنديون سيظلون دائمًا مختلفين عن اليونانيين، والعكس صحيح. ولا أحد فضلًا عن ذلك يقول إنه توجد أمة أوروبية.

وأعتقد، إضافةً إلى ذلك، أنها مع رفضها القول عن نفسها إنها مسيحية، ترتكب أوروبا خطأً جسيمًا. ذلك أن من الواضح أن هذه الجماعة الأهلية التي صممها مونيه، وشومان، وغاسبيري، وأديناور، كانت ناديًا مسيحيًّا، في زمن كانت ويلات الوثنية النازية لا تزال فيه بقوة. فليس لأن الأوروبيين الذين أصبحوا مُشبعين بالنزعة الاستهلاكية المفرطة، وما عادوا يذهبون قط إلى القداس، يمكنهم أن ينكروا جذورهم. فهذه الأخيرة هي تحديدًا جذور الغرب الثقافي الذي تبجله: العصور القديمة الإغريقية - الرومانية، واليهودية، والمسيحية في جميع صيغها (الأرثوذكسية والكاثوليكية والبروتستانتية)، والتنوير.

لكنك تخطئ، على ما يبدو، برفضك لـ "الغرب السياسي" الذي تُشنِّع على أي انتساب إليه إزاء "الغرب الثقافي" الذي تبجله. بالنسبة إليّ، إن مغامرة البناء الأوروبي التي تتواصل اليوم، هي على وجه التحديد أفضل مثال على ذلك النسب الجلي. فمثل أي بنية بشرية واسعة، لأوروبا المؤسسية من دون شك ألف عيب وعيب. لكن لا يسعنا أن نلومها على أنها لا تناضل، يومًا بعد يوم، من أجل السلام، ومن أجل التواصل الثقافي، ومن أجل جودة البيئة، ومن أجل كبح جماح النظام المالي؛ فليس في بروكسل ولكن في نيويورك وُلد جنون اقتصاد المضاربات؛ وإنه في كنف المفوضية الأوروبية جرى البدء في وضع قواعد لإعادة البنوك لمهمتها الأصلية، وهي الائتمان للاستثمارات المنتجة وليس كسب الأرباح من خلال المضاربة.

لم تكن الانتخابات الأوروبية في أيار / مايو 2014 بالتأكيد علامة على الاحتشاد الواسع للهيئات الناخبة للبلدان الثمانية والعشرين الأعضاء في الاتحاد الأوروبي حول مؤسسات بروكسل، لكن هذا الفشل يعزى إلى الحكومات التي جعلت من هذه المؤسسات كبش فداء لضروب قصورهم وجبنهم.

إن فكرة هذه المفوضية - التي ينبغي لأعضائها، بمجرد أن يجري تعيينهم، أن ينسوا جنسياتهم الأصلية ليعملوا حصرًا للمصلحة العامة - هي في حد ذاتها فكرة غربية رائعة!

وأن تكون أوروبا قد تمكنت، على الرغم من جميع الحوادث المؤسفة في مسارها وفترات انحدارها، من بناء نفسها كما فعلت، هو بالنسبة إليّ، عزيزي ريجيس، أفضل شاهد على أن الغرب السياسي ليس سيئًا، أو محتضرًا، وأنه بالفعل وليد الغرب الثقافي.

مع مودتي الصادقة،

**رينو**

# ثبت المصطلحات

**آسيان (ASEAN):** أو رابطة دول جنوب شرق آسيا، منظمة اقتصادية وسياسية وثقافية أسِّست في عام 1967 من خمس دول (تايلند، إندونيسيا، ماليزيا، الفلبين، سنغافورة) في سياق الحرب الباردة من أجل وقف زحف الحركات الشيوعية وتطوير النمو والتنمية وضمان الاستقرار في المنطقة، قبل أن تنضم إليها تباعًا خمس دول أخرى من جنوب شرق آسيا (بروناي، فيتنام، لاوس، بورما، كمبوديا). وتتوسع أهدافها إلى تعزيز التعاون بين أعضائها وتوفير منتدى لحل المشاكل الإقليمية، وخلق قوة وازنة على الصعيد الدولي.

**اتحاد أوروبا الغربية (UEO):** منظمة أوروبية للدفاع والأمن أنشئت في عام 1954، وتتألف من الدول الأعضاء في حلف شمال الأطلسي والجماعة الاقتصادية الأوروبية التي حل محلها الاتحاد الأوروبي. وقد جرى استئنافه في عام 1998 عبر "السياسة الأوروبية للأمن والدفاع" (PESD)، التي جرت الاستعاضة عنها في أعقاب معاهدة لشبونة 2009 بـ "سياسة الأمن والدفاع المشترك" (PSDC)، ثم جرى التخلي عنه نهائيًّا في عام 2011.

**اتفاقية سايكس - بيكو (Sykes - Picot):** وُضعت في عام 1916. كانت تفاهمًا سريًّا بين فرنسا وبريطانيا (بتصديق من الإمبراطورية الروسية) على تحديد مناطق النفوذ في غرب آسيا بعد تهاوي الإمبراطورية العثمانية التي كانت مسيطرة على هذه المنطقة في الحرب العالمية الأولى.

**الأرض المأهولة (Oekoumène):** مفهوم جغرافي لتعيين كل الأراضي التي تغيّرت بفعل الوجود الإنساني؛ ويُحيل المعنى الحديث للكلمة عمومًا على البشرية جمعاء.

**أيار / مايو 1968 (Mai 68):** أو ربيع 1968، فترة مهمة من تاريخ فرنسا المعاصر تميزت بانتفاضة عفوية واسعة، ذات أبعاد ثقافية واجتماعية وسياسية، موجَّهة ضد الأبوية، والمجتمع التقليدي، والرأسمالية، والإمبريالية، وعلى صعيد مباشر بشكل أكبر، ضد السلطة الديغولية القائمة. وهي بذلك تظل أكبر حركة اجتماعية في تاريخ القرن العشرين بفرنسا غيّرت المجتمع الفرنسي بأسره، ووسمت الشبكات المفاهيمية الجماعية إلى اليوم.

**الإيمانية (Fidéisme):** مذهب فلسفي أو نظرية معرفية تؤسس يقينية الحقائق الأساسية للنظام الأخلاقي على الوحي والإيمان؛ ليست حقائق ما وراء الطبيعة فحسب، وإنما حتى حقائق الطبيعة. وينطوي هذا المذهب الإيماني على ارتياب من العقل واحترازٍ من يقينية المنهج العقلاني القائم على اعتبار العلم المصدر الوحيد للحقيقة.

**باكس أميركانا** (**Pax Americana**): تعني "السلام الأميركي". مصطلح لاتيني لتوصيف الهيمنة الأميركية على العالم، كما يدل على فترة السلام النسبي بين الدول الغربية والقوى العظمى الأخرى، من نهاية الحرب العالمية الثانية حتى يومنا هذا، بتزامن مع الهيمنة الاقتصادية والعسكرية للولايات المتحدة. وينسب هذا المفهوم إلى الولايات المتحدة دورًا معاصرًا من شأنه أن يكون مماثلًا لدور الإمبراطورية الرومانية في زمانها (Pax Romana)، ولدور الإمبراطورية البريطانية في القرن التاسع عشر (Pax Britannica)؛ أي دور شرطي العالم.

**باكس سينيكا** (**Pax Sinica**): نسبة إلى الصين، وإلى دورها المركزي المحتمل في عالم الغد.

**البرمجيات الحرة** (**Logiciels libres**): برمجيات حاسوبية يمكن استخدامها وتعديلها من دون قيود، إضافة إلى نسخها وتداولها. والبرمجيات الحرة عمومًا مجانية، إلا أن بعضها قد يكون بمقابل، ويجري عادة توزيعها من خلال ترخيصها للمتلقي تحت رخصة حرة (copyleft)، أو بوضعها في المُلك العام، ونشر الشيفرة المصدرية (code source) لها. وبقيامها على أساس فكرة منح الحرية للمستعمل في مقابل تقييد هذه الحرية في النظام (الرأسمالي) التقليدي القائم على حصر حقوق الملكية والاستخدام، تطرح هذه البرمجيات الحرة تحديات جمة أمام النظريات الاقتصادية التقليدية للابتكار ولحقوق الملكية، وبشكل عام أمام النظام الرأسمالي في زمن الاقتصاد القائم على المعرفة.

**التحالف البوليفاري لشعوب قارتنا الأميركية** (**ALBA**): منظمة سياسية وثقافية واقتصادية أنشئت في عام 2004 في هافانا، في معارضة لمنطقة التجارة الحرة التي روجت لها واشنطن بين بلدان أميركا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي. ويروم هذا التحالف، الذي يضم حاليًّا أحد عشر عضوًا، فضلًا عن عضوين مراقبين، إقامة نظام دولي جديد متعدد المراكز والأقطاب.

تراجيديا هاملت (*The Tragedy of Hamlet*): هي إحدى أهم مسرحيات الكاتب الإنكليزي ويليام شكسبير وأكثرها شيوعًا. وقد لاقت شخصية الأمير هاملت العديد من التوظيفات لاحقًا في الأدب والفن والسينما والفكر، وهي ترمز في الفكر الغربي بالأساس إلى تراجيديا الانتقام.

**التمويل الجماعي** (**Crowdfunding**): يوصّف أدوات المعاملات المالية وأساليبها التي تلتمس عددًا وافرًا من الأشخاص ("حشدًا") لتمويل المشروع. ويتم هذا التمويل من دون اللجوء إلى الجهات الفاعلة التمويلية التقليدية (البنوك والمؤسسات المالية)، إذ أصبح ممكنًا الاستغناء عن هؤلاء الوسطاء التقليديين بفضل الإنترنت والشبكات الاجتماعية (مثلًا استكتاب عدد كبير

من الأشخاص لإنتاج ألبوم لمغنٍ شاب بعد أن راقهم ما وضعه على اليوتيوب).

**جون رامبو** (John Rambo)**:** شخصية وهمية خلقها ديفيد موريل (David Morrell) في رواية **رامبو** في عام 1972، واقتُبست للسينما في سلسلة من خمسة أفلام، صدر آخرها في عام 2019، وأدى فيها دور البطولة سيلفستر ستالون. وقد لاقت شخصية رامبو، وهو أحد قدامى محاربي الوحدات الخاصة الأميركية في فيتنام ويتمتع بقدرات هائلة، انتشارًا واسعًا على المستوى العالمي، بحيث أصبحت ترمز إلى القوة الأميركية التي لا تُقهر.

**دودة الكمبيوتر** (Ver informatique)**:** هي برنامج كمبيوتر مؤذٍ يتولد في أجهزة كمبيوتر متعددة باستخدام شبكة مثل الإنترنت. وعلى خلاف "فيروس الكمبيوتر" (virus informatique)، لا تحتاج دودة الكمبيوتر إلى برنامج مضيف لتوالدها. فهي تستخدم الموارد المختلفة للكمبيوتر الذي يستضيفها لضمان تكاثرها وتحقيق أغراض أخرى من قبيل التجسس على الكمبيوتر حيث توجد أو تدمير البيانات أو غير ذلك.

**الساراسين** (Sarrasin)**:** هي التسمية التي كانت تُطلق خلال العصور الوسطى في أوروبا على المسلم وعلى الشعوب المسلمة. ويحتمل أن يكون أصل هذه التسمية من الإغريقية Sarakênos المتأتية بدورها من اللفظة العربية "شرقيون".

**ستكسنت** (Stuxnet)**:** دودة كمبيوتر اكتُشفت في عام 2010، بعد أن صممتها وكالة الأمن القومي الأميركية بالتعاون مع الوحدة 8200 (وحدة للاستخبارات في الجيش الإسرائيلي)، من أجل مهاجمة أجهزة الطرد المركزي الإيرانية لتخصيب اليورانيوم. وقد بدأ البرنامج تحت إدارة جورج بوش الابن واستمر تحت إدارة باراك أوباما. وقد أصابت هذه الدودة 45 ألف نظام كمبيوتر، من بينها 30 ألفًا تقع في إيران، بما في ذلك الأجهزة التابعة لمنتسبي محطة بوشهر للطاقة النووية. وأنظمة الكمبيوتر الـ 15 ألف الأخرى هي أجهزة كمبيوتر ومركزيات موجودة في ألمانيا وفرنسا والهند وإندونيسيا، من بين مستخدمي تكنولوجيا سيمنز (Siemens).

**السوريالية** (Surréalisme)**:** حركة فكرية وأدبية وفنية برزت في بداية القرن العشرين، وتميزت أساسًا برفض أي اعتبار منطقي أو جمالي أو أخلاقي، وبرفض المعارضات التقليدية بين الحقيقي والوهمي، والفن والحياة، إضافةً إلى إيلائها مكانة مركزية لعنصر المصادفة، ولقوى الغريزة، وللاشعور، ساعية إلى بلورة واقع متعالٍ من خلال استخدام وسائل جديدة: الكتابة التلقائية، والتجميع التلقائي للكلمات والأشياء، والتقريب غير المتوقع للصور، وغير ذلك

**الغولاغ (Goulag):** هي الوكالة المركزية لإدارة معسكرات العمل القسري في الاتحاد السوفياتي، وقد أنشئت في تموز / يوليو 1934 واستمرت حتى عام 1991، وجرى اصطلاحها على "معسكر العمل الإصلاحي". في المجموع، يُقدَّر عدد من أقام في هذه المعسكرات الجهنمية بين 10 و18 مليون شخص، تعرّضوا فيها لكل أشكال القمع والتنكيل، ولقي كثير منهم (يُقدَّر عددهم بقرابة 5 ملايين شخص) حتفهم داخلها.

**الكارولنجيون (Carolingiens):** سلالة ملوك فرنجة حكموا أوروبا الغربية من عام 751 حتى القرن العاشر الميلادي. ويُعتبر شارلمان (Charlemagne)، الذي سماه العرب قارلة، مؤسس إمبراطورية الفرنجة وأعظم الملوك الكارولنجيين.

**كسبُ التعاطف والقبول (Captatio benevolentiae):** عبارة تعني حرفيًّا "إغواء الأرواح"، وتتعلق بتقنية خطابية تسمح بكسب تعاطف المحاوِر وقبوله في وقت مبكّر من الحوار. وقد عُرف هذا الأسلوب عند الخطباء الرومان؛ إذ كان شيشرون مثلًا يعتبره أحد أركان الخطابة.

**مجموعة العشرين (G20):** هي منتدى تأسس في عام 1999 إثر تعاقب الأزمات المالية خلال عقد التسعينيات، هادفًا إلى التنسيق الاقتصادي العالمي، نظرًا إلى تزايد الوزن الاقتصادي لعدد من الدول غير الغربية الغائبة عن "مجموعة السبعة" (G7). ويتألف هذا المنتدى من 19 دولة إضافة إلى الاتحاد الأوروبي، ويمثِّل 85 في المئة من التجارة العالمية، وأكثر من 90 في المئة من الناتج العالمي الخام.

**المركزية الإثنية (Ethnocentrisme):** تفيد الاستعلاء العرقي؛ بمعنى الاعتقاد بأن جماعة الفرد الأهلية هي الأفضل من بين جميع الجماعات الأهلية الأخرى، ومن ثم رؤية العالم وتنوعه من خلال الموشور الذاتي الحصري، والترفع على الآخر. وعلى الرغم من أن هذا التمركز العرقي قد مثّل عاملًا مهمًّا في نشأة الصراعات والحروب عبر التاريخ، فإنه ارتبط في العصور الحديثة بصورة أكبر بـ "الغرب" و"الحضارة الغربية".

**معاهدة أنزوس (ANZUS):** (الاتفاقية الأمنية بين أستراليا ونيوزيلندا والولايات المتحدة)، هي تحالف عسكري وُقّع في سان فرنسيسكو عام 1951 وربط بين أستراليا ونيوزيلندا من جهة، وأستراليا والولايات المتحدة من جهة أخرى، بشأن التعاون في الأمور الدفاعية في منطقة المحيط الهادئ. وفي ثمانينيات القرن الماضي، اعتبرت الولايات المتحدة أن المعاهدة معلقة بينها وبين نيوزيلندا بسبب التوتر بين البلدين، ولذا لم يعد لها اليوم أثر فعلي ملموس، مفسحة المجال لعلاقات ثنائية بين واشنطن وكانبيرا من جهة، وويلينغتون وكانبيرا من جهة أخرى.

**مركوسور (Mercosur):** تكتل اقتصادي يجمع دولًا من أميركا الجنوبية هي الأرجنتين والبرازيل وأوروغواي وفنزويلا وبوليفيا وباراغواي (عضوية الأخيرة مجمدة)، في حين تُعَد بلدان أخرى شريكة لها (تشيلي وكولومبيا وبيرو والإكوادور).

**معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (MIT):** معهد للأبحاث وجامعة أميركية متخصصة في مجال العلوم والتكنولوجيا، غالبًا ما يجري تصنيفه في صدارة الجامعات العالمية في مجال العلوم والتكنولوجيا.

**منظمة الدول الأميركية (OEA):** منظمة تأسست في عام 1948، وتجمع جميع بلدان القارة الأميركية الخمسة والثلاثين.

**منظمة شنغهاي للتعاون (OCS):** تأسست في عام 2001، وتجمع بين روسيا والصين وكازاخستان وقرغيزستان وطاجيكستان وأوزبكستان، إضافة إلى خمس دول مراقبة (أفغانستان، الهند، إيران، منغوليا، باكستان) وثلاث دول شريكة (بيلاروسيا، سريلانكا، تركيا).

**نظام حكم الأغنياء (Ploutocratie):** يحيل هذا المفهوم الذي جرى بناؤه انطلاقًا من الكلمتين الإغريقيتين ploutos التي تعني الثروة، وkratos التي تعني السلطة، على الارتباط السرمدي للثروة الاقتصادية بالسلطة السياسية. ولهذا المفهوم دلالة قدحية بحيث نجده يُستخدم بالأساس للتنديد بتجاوزات الديمقراطيات الحديثة حيث يُؤثّر أصحاب المال واللوبيات في صوغ نصوص القوانين وفي سير الحياة السياسية بشكل عام.

**وادي السيليكون (Silicon Valley):** قطب لصناعات التكنولوجيا الفائقة على الساحل الغربي للولايات المتحدة، يرتبط نجاحه ارتباطًا وثيقًا بوجود جامعة ستانفورد وبإيوائه مقر أكثر من 6000 شركة من بين الشركات الأهم في العالم في مجال التكنولوجيا الفائقة.

**الولادة الجديدة (Born - again):** تعبير مسيحي يشير إلى الشخص الذي يؤكد أنه عاش إحياء روحيًّا بعد أن تصالح مع الله، والذي أصبح في أعقاب هذه الولادة الجديدة يسمى "ابن الله" ووارثًا مع المسيح؛ وهذا العنصر أساسي في المسيحية الإنجيلية. وعلى الرغم من أن "حركة الشاي" هذه قُدمت على أنها ظاهرة عَلمانية مدفوعة بالقلق الاقتصادي إزاء الأزمة، فإن الدوافع الإنجيلية تُلهم هذه الحركة إلى حد بعيد.

**ويكيليكس (WikiLeaks):** منظمة دولية غير ربحية تنشر وثائق سرية وتحليلات سياسية واجتماعية مختلفة. هدفها الأساسي هو منح صدى واسع لتسريباتها للمعلومات ذات المصادر الصحافية والإخبارية المجهولة المصدر. وقد بدأ موقعها على الإنترنت في عام 2006، قبل أن تبدأ كبريات الصحف العالمية (**نيويورك تايمز، الغارديان، لوموند، إلبايس، دير شبيغل** وغيرها) تنقل تسريباتها، لتتمخض عنها في كل مرة فضيحة عالمية مدوية.

**يانوس (Janus):** إله روماني ذو وجهين، وهو إله البدايات والنهايات، سُمّي به شهر يناير (Ianuarius) لأنه ينظر في تجاه السنة الماضية وفي تجاه السنة الجديدة. ويجري في الغالب توظيفه مجازيًا للدلالة على الشيء الواحد ذي الوجهين، مثلًا الوجه الخيّر للغرب ووجهه الشرير.